الفصل الخامس

الثابت والمُتَغيِّر في الحضارة المصريَّة

في البداية يجب التفريق بين الثابت والمُتَغيِّر في مفهوم الحضارة ومقوِّماتها فليس كل مُتَغيِّر محمود ولا كل ثابت مذموم أو العكس ؛ فإن هذا يتوقف على طبيعة المُتَغيِّر والثابت فبالنسبة لمفهوم الحضارة إذا كان الثبات في الجانب المعنوي – عند أصحاب الحضارة الدينية السماويَّة كمصر – يكون محموداً في حين أن ثبات الجانب المادي " المَدَنِيَّة " يعد مذموماً ؛ لأن ثبات مبادئ الدين الصحيح والخلق الرفيع وما يفرزانه من سلوك قويم لا يتغير بتغير الزمان والمكان فهذه قيم ثابتة غير نسبيَّة لن تقوم حضارة إلا بها مهما كانت مقوماتها الطبيعيَّة والبشريَّة ، أما المَدَنيَّة (الرقي في العلوم التجريبيَّة والتكنولوجيا والعمران) فهي متطوِّرة دوماً والثبات فيها تخلُّف ورجعيَّة .

وإذا طبَّقنا هذا المقياس على الحضارات المصريَّة ونهضاتها فإن ثبات مبادئ الدين القويم والخلق الرفيع وما ينبثق عنهما من عادات وتقاليد وثقافة يكون محموداً ، ولا يعد تخلُّفاً ولا رجعيَّة كما يحلو للعلمانيين اللادينيين والماركسيين أن يسمُّوه في مقابل أن ثبات الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والعلميَّة والتكنولوجيَّة والعمرانيَّة يعد تخلُّفاً ورجعيَّة .

استمراريَّة الطبيعة الجغرافيَّة والمُناخ في مصر

ولعلَّ خير ما نفعل لتقصِّي واختبار قاعدة استمراريَّة الشعب المصري هو أن نتَّتبع مظاهرها في مختلف الجوانب الطبيعيَّة والبشريَّة والمَدَنيَّة والثقافيَّة حتى نحدِّد الثوابت والمُتغيِّرات ، والسلبي والإيجابي في كلٍّ منها ، ويحسن أن نبدأ بمظاهر الأرض الطبيعيَّة أولاً .

يقول د. جمال حمدان في كتابه شخصيَّة مصر : " فإذا نظرنا إلى مصر أولاً فسنجد أن رقعتها الثانية المحدَّدة تقريباً لم تتعرَّض لتغيُّرات أو تقلُّصات خلال العصور التاريخيَّة ؛ فمنطقة الوادي نهريَّة أساساً وليست سيسمية (زلزاليَّة) بأي درجة تذكر ، ولذا لم تعرف أي تغيرات نكبائية أو فجائية مما قد يصيب المناطق البركانيَّة أو الزلزاليَّة مثلاً .. وحتى إذا نظرنا إلى شبكة ترعنا الكثيفة المعاصرة ، فليس من العسير أن نتعرَّف فيها على أجزاء وقطاعات من أصل قديم . فكثير من فروع الدلتا القديمة ، سواء أكانت سبعة كما يقول " هيرودوت" و " سترابو " أو تسعة كما يقول " بطليموس " ، إذا كانت قد اندثرت كفروع طبيعيَّة فقد تحوَّلت إلى ترع للري ويمكن بسهولة تحديد مساراتها ومجاريها في ترع اليوم .

إن التطوُّرات في جغرافيَّة مصر الطبيعيَّة تمضي بطيئة متثاقلة كما أن التغيُّرات التي طرأت على استغلال الأرض وعلى حياة الناس ربما لم تمس جوهر الأشياء . مثلاً سطح الأرض – وجه مصر نفسه – لم يكد هو الآخر يعرف تغيُّراً أساسيّاً أو محسوساً في شكلها ومظهره العام عبر تاريخه الألفي الأخير . فالمنطقة بلا غطاء نباتي طبيعي مذكور كما نعرف ، فلم تتعرَّض لما تعرَّضت له مناطق أخرى كثيرة كعملية إزالة الغابات التاريخيَّة ولا عرفت مشكلة تعرية التربة وغير ذلك مما كان له أكبر الأثر في تغيير طبيعة وشكل الحياة في تلك المناطق . (١)

وبعد أن تحدَّث د. حمدان عن استمراريَّة الطبيعة الجغرافيَّة المصريَّة وذكر أنها لم تعرف تغييراً يُذْكر تحدَّث عن استمراريَّة المُناخ المصري فقال : " وعلى الجملة يمكن القول بأن مُناخ مصر التاريخي أدخل في باب الاستمراريَّة منه في باب الانقطاع .

وفي كل الأحوال فقلَّما كان لهذه التغيرات الطفيفة المفترضة ، إن وجدت ، أثر محسوس على وادي النيل نفسه المستقلِّ بنهره عن ضبط المُناخ المحلي أو الإقليمي

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٥٦، ٥٥٧ بتصرف .

المباشر ، ولقد ظلَّ نظام الحياة في الوادي أقرب إلى الثبات والاستمرار دون تغير ملموس أو انقطاع حاسم ، على الأقل منذ الفرعونيَّة حتى العصر الحديثة . (١)

استمراريَّة الشعب المصري جنسيّاً وثقافيّاً

شعب مصر يعدُّ شعباً فريداً بين شعوب الأرض فبينما تعدُّ وحدة الجنس لشعب من الشعوب أسطورة فإنها بالنسبة للشعب المصري حقيقة مؤكَّدة فلقد جاءت الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة (علم دراسة الإنسان) لتؤكِّد أن ٧٩ % من المصريين : مسلمين ومسيحيين يعودون إلى أصل جنسي واحد وهو المصري القديم الذي شيَّد أوَّل حضارة عرفها البشر وأن الأجناس الأجنبيَّة أغلبها قد انقرض كاليونان والرومان والمماليك والعثمانيين ...{ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ } [الحاقة:٨] ومن بقي منهم ذابت دماؤه في نهر الجنس المصري الأصيل هذا من حيث الأصل الجنسي ، أما من حيث التأثير الحضاري فلقد تفاعل المصريون باستمرار مع أجناس بشريَّة شتى أثَّر فيهم كثيراً ولم يتأثر بهم إلا بما يتفق مع طبيعته وشخصيَّته مما نتج عنه ذلك التشابه العجيب بين غالبيَّة المصريين المحدثين وبين أجداهم القدامى .

يقول د. وسيم السيسي : " إننا شعب واحد.. من الناحية الجغرافيَّة، ونشرب من إناء واحد إلا وهو نهر النيل، ومائدة واحدة نتناول منها طعامنا وهي الوادي، ونحن كذلك شعب واحد من الناحية السياسيَّة، ويتجلي ذلك في حكومة لم ينفرط عقدها منذ ٦ آلاف سنة، وكذلك نحن شعب واحد من الناحية البيولوجيَّة وأول من أشار إلي ذلك هو فلندر اسبتري حين قال إن المشكلة في مصر ليس في غزوها.. وإنما المشكلة هي في الوصول إليها.. لماذا ؟! لأنك نادراً ما تجد شعباً متماثلاً في شكله الظاهري، بل في طباعه وأخلاقه ومزاياه، مثل الشعب المصري. وقد ظلَّ هذا القول قائما ومشهوراً حتى جاءت السيدة مارجريت كندل وهي عالمة جينيات والتي أجرت دراسة عن ثلاثة شعوب، الألمان باعتبار أن هتلر كان يعلن دائماً بأنهم من أنقي الشعوب لأنهم ينتمون إلي الجنس الآري، فوجدت أن الجينات مختلفة وأن شعبها متباين تماماً

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٦٤

ثم البحث الثاني عن اليهود.. وقد فوجئت بأن يهود الاتحاد السوفيتي يحملون نفس فصائل الدم، وجينيات شعب الاتحاد السوفيتي، ويهود انجلترا مثل بقية الشعب الإنجليزي، ويهود أمريكا مثل الأمريكان. إذن مسألة نقاء العرق اليهودي غير صحيحة .

لقد أعلنت أن الصدمة التي تلقَّتها من خلال بحثها الثالث ترتبط بالشعب المصري؛ إذ أخذت عيِّنات متعدِّدة من أسوان إلي الإسكندرية ومن الصحراء الغربيَّة إلي الشرقيَّة ومن المدن الكبرى والقرى والكفور والنجوع وعيادات الأطباء ومن المسلمين ومن المسيحيين. فكانت الصدمة الحضاريَّة أن المسلمين والمسيحيين، جيناتهم واحدة في ٧٩٪ من العينات التي أخذتها .

وهذا يؤكِّد ما ذكره «إستامب» من عشرات السنين حين قال إنه بالرغم من الغزوات الكثيرة التي مرت علي مصر عبر العصور، إلا انه كان تغيُّراً في الحكَّام ولم يكن تغيُّراً في جنسيَّة مصر لأن البحر المصري الكبير كان يذيب أيَّة جينات وافدة عليه .. إذن ما ذكره استامب وفلندر اسبتري ومارجريت كندل بالنسبة للشعب المصري ومن دور هذا التأكيد العلمي السابق الإشارة إليه.. وهو أننا شعب واحد تاريخيّاً وجغرافيّاً وسياسيّاً وبيولوجيّاً. وهذه هي عظمة مصر وسر قوتها. (١)

ويقول أدولف ارمان وهرمان رانكة : " في مصر وحدها دون غيرها نستطيع أن نرى نفس الناس طوال خمسة آلاف سنة : لم تتغيَّر فيها اللغة إلا مرة واحدة ، وتغيرت فيها الديانة مرتين وجنسيَّة الطبقة الحاكمة عدة مرات ولكن الظروف الطبيعيَّة للحياة بقيت ثابتة لا تتغير ، وهذا لم يحدث في التاريخ إلا فيما يتعلَّق بالشعب المصري " .

ويضيف المؤلِّفان : " لا يزال الشعب الذي سكن مصر القديمة يعيش بروحه الآن في السُّكَّان الحاليين لهذه البلاد ، لقد غيَّرت تقلُّبات التاريخ لغة البلاد ودينها ، ولكنها لم تستطع أن تغيِّر من مظهر هذا الشعب القديم . إن مئات الآلاف من اليونان والعرب الذين استقرُّوا في البلاد لم يُحْدِثُوا فيها أثراً لأن البلاد قد امتصَّتهم وقد يكون من المحتمل أنهم تمكَّنوا من إحداث أثر في المدن الكبيرة التي استقرُّوا فيها مجتمعين

(١) من حوار أجراه صلاح صيام مع د. وسيم السيسي نشر علي بوابة الوفد بتاريخ ٢٠١٣/٧/١١

ولكنهم في سائر البلاد – وبخاصَّة في الوجه القبلي – لم يُحْدِثُوا إلا أثراً ضئيلاً جداً فالفلاح الحالي لا يزال يشبه أجداده الذين عاشوا منذ خمسة آلاف سنة تمام الشبه مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالي قد أصبح يتكلَّم اللغة العربيَّة ويدين بالإسلام أو المسيحيَّة والذي يتجوَّل الآن في قرية مصريَّة من قرى الوجه القبلي يستطيع أن يرى أشكالاً من الناس يُخَيَّل للمرء أنها خرجت لساعتها من الرسوم الصور التي تغصُّ بها المقابر المصريَّة القديمة . " (١)

ويقول إليوت سميث : " منذ ١٣ قرناً اكتسبت مصر اللغة العربيَّة والدين الإسلامي دون أن تخضع لأي تغيير ملحوظ في الصفات البدنيَّة لشعبها " (٢)

ويقول هيرودوت : " والمصريون يتجنَّبون اتخاذ العادات اليونانيَّة وجملة القول إنهم يتجنَّبون عادات الناس جميعاً دون استثناء ، وهكذا يراعي سائر المصريين هذا العرف " (٣)

ويقول د. أحمد بدوي تعليقاً على كلام هيرودوت هذا : " ليس من شكٍّ في أنَّ المصريين القدماء قد كانوا من أكثر شعوب العالم اعتزازاً بماضيهم ومحافظة على تقاليدهم يرون ذلك من قواعد الإيمان .. الطبقة المُسْتنيرة من أهل العلم والمعرفة هم يومئذ من رجال الدين . (٤)

سر بقاء واستمرار الجنس المصري واختفاء الأجناس الأجنبيَّة

لقد وضع علماء الحملة الفرنسيَّة أيديهم على سر بقاء الجنس المصري واضمحلال وفناء الأجناس الأجنبيَّة الأخرى ، هذا السر يكمن في المرأة المصريَّة حاملة الجينات المصريَّة المجيدة والمحافظة على العادات والتقاليد المصريَّة الأصيلة هذه المرأة التي أوقفت حياتها على بقاء الجنس المصري واستمراره عن طريق ما وهبها الله تعالى من خصوبة عالية وأمومة متدفقة وجَلَدٍ وصَبْرٍ نادرين .

---

(١) " مصر والحياة المصرية في العصور القديمة " ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص ١ مقلاً عن محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ص ٩٤ ، ٩٥ .
(٢) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ص ٩٦.
(٣) " هيردوت يتحدث عن مصر " ترجم الأحاديث عن الإغريقية د. محمد صقر خفاجة ، وقدَّم لها وتولى شرحها د. أحمد بدوي دار القلم ص ١٩٩ .
(٤) د. أحمد بدوي هامش كتاب " هيردوت يتحدث عن مصر " ص ٢٠٠ .

يقول علماء الحملة الفرنسيَّة : " ويمكن للزوجة المصريَّة أن تصبح أمّاً في سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة وتظلُّ في سنواتها المقبلة تقدِّم الأدلَّة على خصوبتها المذهلة ومن الممكن لها أن تصبح أمّاً كل تسعة أشهر ، ولكننا نستطيع القول لكي نقدِّم نسبة دقيقة بأن كل مصريَّة تتزوج تنجب طفلاً كلَّ ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك التقدير نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن أو أولئك اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة أو اللاتي تجعلهن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الإنجاب ، والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، بل إنه يعد بمثابة عار للمرأة ؛ لذا تلجأ السيدة العقيم إلى كل الوسائل التي تفرضها معتقدات النساء وخرافاتهن لكي تستطيع الإنجاب " (١)

ولقد استمرَّت الفلاحة المصريَّة على خصوبتها ورغبتها في كثرة الإنجاب حتى اليوم يقول عالم المصريات د. محرم كمال : " يحرص الفلاحون في القرى على الإكثار من الأولاد والنسل حتى تكون لهم أسرة كبيرة وذُرِّيَّة ، وهم يُبكِّرون في الزواج بدرجة يستغربها الكثيرون – فهذه عادة ورثناها عن المصريين القدماء قال الحكيم " آني " في وصيَّة إلى ابنه : " اتخذ لنفسك زوجة وأنت صغير حتى تعطيك ابناً تقوم على تربيته وأنت في شبابك وتعيش حتى تراه وقد اشتدَّ وأصبح رجلاً – إن السعيد من كَثُرت ناسه وعياله فالكلُّ يوقِّرونه من أجل أبنائه " .

أليست هذه العبارات بألفاظها ومعانيها هي التي نسمعها كل يوم من أفواه المسنين من الفلاحين يوصون بها أولادهم ليل نهار ؟ " (٢)

ولا يتوقَّف دور المرأة المصريَّة في الحفاظ على الجنس المصري واستمراره على خصوبتها الشديدة وندرة عقمها وسعيها المحموم لعلاجه ، بل يتجلَّى في رعايتها لأطفالها من رضاعة وتربية وتنشئة تلك الرعاية التي تقوِّى عود الأبناء وتنمِّي صلابتهم وقدرتهم على تحمُّل المسئوليَّة تلك التربية التي تعلَّمتْها من جدَّاتها المصريات وحافظت عليها وعلَّمتها أولادها .

---

(١) موسوعة "وصف مصر " الجزء الأول " المصريون المحدثون " تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٧ .
(٢) د. محرم كمال " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية " الهيئة العامة للكتاب ص ١٨ .

فالمرأة المصريَّة تحرص أشدَّ الحرص على إرضاع أبنائها من لبنها مدَّة لا تقلُّ عن عامين بحال وقد تصل إلى خمس سنوات ، ولا تسمح مطلقاً لواحدة غيرها أن تربِّي أبناءها (١)ولا تتحمَّل أبداً بُعْد أبنائها عن حضنها مما يولد علاقة شديدة الحميميَّة بين الأبناء والوالدين خاصة الأمهات ، هذه العلاقة التي تجعل من الأبناء أغلى ما يعتزُّ به الوالدان ويضحُّون من أجله ، ويفاخرون به وتجعل من الوالدين أهم ما يحرص الأبناء على حبِّه وطاعته والتفاني في خدمته ورعايته .

يقول علماء الحملة الفرنسيَّة : " ولا يصبح للمرأة المصريَّة من شاغل – وقد أصبحت أمّاً – إلا أن تعنى بطفلها ؛ فتضع فيه كل اهتمامها وتركز حوله عواطفها، ولا تستطيع أقوى الشدائد أن تدفعها لكي تتخلَّص من هذا العبء الذي تظلُّ فخورة به طيلة تسعة أشهر ، بل أن طفلها المُرْتقَب ينسيها آلام الوضع ، فهذا الكائن الضعيف والعزيز هو تعويض لها عن آلام طويلة ، وكم هو جميل بالنسبة لها أن تقوم بواجباتها الطبيعيَّة ! إنها لن تسلِّم مطلقاً هذا الطفل الذي يدين لها بوجوده وجسمه السليم لعناية سيدة أخرى غريبة عنه ؛ فهي شديدة النهم لملاطفته الأولى ، وهي كذلك تطعمه من لبنها ولا تخشى مطلقاً ما يعدها به هذا المولد الجديد من متاعب ؛ فلقد قرَّرت أن تتحمَّل ذلك بسرور ولسوف تتحمَّل في شجاعة أيَّة مخاطر كبرى قد تتهددها ، لكنها لا يمكن أن تسمح له مطلقاً بأن يخلع على أخرى ببساطة ذلك الاسم الذي يصنع لها سعادتها ومجدها اسم " أُمّ " الذي تغار عليه وتفخر به لذلك لا تُعْرف في مصر هذه الأمراض التي تثير أحزان الأمَّهات الشابات اللاتي يمتنعن عن إرضاع أطفالهن أما عمليات سكب لبن صدر الأم وغيرها من الأمور التي تضعف صحة الأمَّهات فسوءات لا يعرفها الشرق . فكلُّ امرأة هناك هي مرضعة أسرتها .

وهكذا يبدو أن العناية الإلهيَّة تقيم من التعويض بين المزايا التي توزِّعها على الشعوب فهذا هو المصري الذي ليست له نفس مباهجنا وملذَّاتنا أو نفس ميزاتنا الجسديَّة أو الروحيَّة التي تبعده عن أسرته يعرف أكثر منَّا معنى العواطف الطبيعيَّة

(١) بخلاف ما هو معروف في الأمم الأخرى من دفع الأمهات أطفالهن إلى مرضعات ومربيات أخريات، والسماح لهم بالتربية بعيداً عن أحضانهن . والأسف فإن هذه العادات الأجنبيَّة الدخيلة تسللت إلى كثير من الأسر المصرية خاصة الميسور منها مما نتج عنه تغيراً ملحوظاً في شخصيَّة المصري وإهداراً لكثير من قيم المجتمع المصري .

فأطفاله هم كل شيء في حياته وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله ، ولربما كانت أحاسيسه أكثر تبلُّداً وأقلَّ تنوُّعاً لكنها أكثر نفاذاً وأكثر حقيقة ، وهو يدين بذلك إلى براءة عاداته وكذا إلى بساطة تقاليده . لقد وجدها كامنة في نفسه وفي ثنايا أسرته ، فليس ثمَّة من المرارة والندم العائلي ما يسمِّم مباهجه . " (١)

هذا هو سر بقاء الجنس المصري فريداً ، خصوبة المصريات العالية ، ووقف المصريين : أمهات وآباء حياتهم على تربية أبنائهم ورعايتهم ، هؤلاء الأبناء الذين يعتبرهم الآباء أعظم إنجاز يحقِّقونه في حياتهم وربما كانوا مصدر سعادتهم الوحيد – بسبب المحن الكثيرة التي مرَّت بها مصر طوال تاريخها – لدرجة أنَّهم يفنون أنفسهم في أبنائهم فلا تنادَى الأمُّ إلا باسم ابنها فيقال " أم فلان " وكذلك الأب " أبو فلان " لذا لا عجب أن يَبَرَّ الأبناءُ آباءَهم ويتخذونهم قدوة حسنة وتمسَّكون بعاداتهم وتقاليدهم ، ويربُّون أولادهم كما ربَّاهم آباؤهم .

يقول هيرودوت : " ويتَّفق المصريون مع اللاكيديمونيين وحدهم من بين اليونانيين في أمر آخر ؛ عندما يقابل الشبان الشيوخ منهم يفسحون لهم الطريق ويتنحَّون جانباً وعندما يقبل عليهم الشيوخ يقومون من مقاعدهم ." (٢)

وهذه من القيم النبيلة التي ما زال المصريون يتَّبعونها ويحرصون عليها وجاء الإسلام فأكدها فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ " لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ " [رواه الحاكم بإسناده حسن]

فإذا جئنا إلى الأجناس الأخرى التي عاشت في مصر فإنها لم تهتد إلى هذا السر سر البقاء والاستمرار فاندثروا .

ويفسِّر علماء الحملة الفرنسيَّة سر بقاء العنصر المصري واختفاء وذوبان العناصر الدخيلة عليه فيقولون : " يمكن القول بأن هذا الشعب (المصري) يدين بوجوده لخصوبة نسائه بينما يصعب على الأجناس الأخرى أن تستمرَّ على قيد الحياة في

(١) موسوعة "وصف مصر " الجزء الأول " المصريون المحدثون " تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٨، ٥٩ .
(٢) " هيردوت يتحدث عن مصر " ترجم الأحاديث عن الإغريقية د. محمد صقر خفاجة ، وقدَّم لها وتولى شرحها د. أحمد بدوي دار القلم ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

هذه البلاد وسوف نقدِّم الدليل على ذلك في الجدول الآتي عن حالة أهمِّ الأسر المملوكيَّة :

إسماعيل بك : لم يترك إلا بنتاً واحدة .

إبراهيم بك : له طفلان على قيد الحياة .

قاضي أغا : أنجب ١١ طفلاً ، بقي منهم ٤ على قيد الحياة .

مراد بك ، أيوب بك الصغير ، أيوب بك الكبير ، الألفي بك ، محمد بك المنفوخ، عثمان بك تبأس ، عثمان بك الشرقاوي ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسي ، عثمان بك الطمبورجي ، حسن بك الجداوي ، صالح بك ، إبراهيم بك الوالي ، محمد بك العبدولي ... **كل هؤلاء بلا أولاد** .

محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة على قيد الحياة .

علي بك الكخيا : له طفلة واحدة على قيد الحياة وذلك سليمان بك .

أحمد بك الكرارجي : لم ينجب على الإطلاق ونفس الشيء بالنسبة لعثمان بك حسن وكذلك سليم بك أبو دياب وقاسم بك .

حسن الكاشف الشركسي : لم يخلف سوى طفل أعمى .

محمد أغا : أنجب ٢٢ طفلاً لم يبق منهم على قيد الحياة سوى طفل واحد ضعيف البنية .

ومن هذا نرى كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون على قيد الحياة ضئيلاً ويمكننا من جهة أخرى أن نعد أسراً أجنبية أخرى كثيرة لم تكن بأسعد حظّاً من ذلك ، وهذا دليل على أن الوطنيين وحدهم في مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل . ويبدو أن طبيعة الطقس تلفظ بعناد الأجناس الغريبة . " (١)

الفلاح سر بقاء واستمرار الجنس المصري

(١) موسوعة "وصف مصر " الجزء الأول " المصريون المحدثون " تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٩ ، ٦٠ .

عرفنا كيف حافظ المصري على سرِّ بقائه واستمراره وعاداته وتقاليده ، ويعتبر الفلاح المصري أكثر من غيره من فئات الشعب محافظة على أصالته وأقرب هذه الفئات إلى المصري القديم بل نستطيع أن نقول مطمئنين أنه أنقى المصريين جنساً وأكثر المصريين محافظة ليس على جينات المصريين القدماء فحسب بل على العادات والتقاليد المصريَّة القديمة أيضاً .

يقول محمد العزب موسى : " الفلاح المصري إذن من أكثر العناصر ثباتاً واستمراراً في قصة مصر ، ولم يعد هذا فرضاً نظريّاً وإنما حقيقة علميَّة أثبتتها الدراسات التاريخيَّة والأنثروبولوجيَّة والفلكلوريَّة ولقد بدأت قصة الفلاح المصري مع فجر الحضارة في وادي النيل منذ ستة أو سبعة آلاف سنة واستمرَّت حتى الآن دون أن تنقطع تحت وطأة التغيرات الكبرى التي طرأت على مصر خلال تاريخها الطويل وأهمها انهيار الحضارة المصريَّة القديمة وضياع استقلال مصر السياسي ودخولها في كنف الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة وأخيراً انفتاحها على حضارة العصر الحديث فكل هذه التغيرات الكبرى لم تؤثِّر كثيراً في التكوين الجنسي والنفسي للفلاحين المصريين ولم تؤثِّر إطلاقاً في استمراريَّة حياتهم ولا ينبغي بالتالي أن تحول دون محاولة تقييم دورهم الحضاري المتَّصل . (١)

وإذا تقصَّينا جذور وأصول العباقرة والنابغين من أبناء مصر في العصر الحديث فإننا نجد أن جلَّهم إن لم يكونوا كلهم من أصول ريفيَّة مصريَّة من رفاعة الطهطاوي إلى د. زويل ود. مصطفى السيد مروراً بعلي مبارك ، أحمد عرابي ، مصطفى كامل ، سعد زغلول ، مصطفى النحاس .. مصطفى مُشرَّفة ، سميرة موسى ، سليم حسن ، جمال حمدان .. محمد عبده ، محمود شلتوت ، عبد الحليم محمود ، الشعراوي ، محمد الغزالي .. العقاد ، طه حسين ، زكي نجيب محمود ، شوقي ضيف .. بنت الشاطئ ، نبويَّة موسى ، ملك حفني ناصف ... هذا مما تحتفظ الذاكرة بأسمائهم وغيرهم كثير ممن لا يحصيهم عد .

(١) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ٩٨ .

كل عباقرة مصر نبتت جذورهم في قرى وكفور ونجوع مصر رغم الحالة البائسة التي وصلت إليها تلك القرى في العصور المتأخرة ، وخاصة المرأة المصريَّة .

الاستمرار الحضاري الثقافي

إن الجغرافيا التاريخيَّة التفصيليَّة كثيراً ما تكشف لنا عن ثبات واستمرار محقَّق ، بل ونادر ومثير أحياناً ؛ فقد يتتابع على نفس الرقعة بلا تحرج معبد فرعوني فكنيسة قبطية فمسجد إسلامي ، ولعل أبرز مَثَل مسجد أبو الحجاج بالأقصر الذي يحتلُّ ركناً عالياً من معبد آمون بالكرنك . وخلف هذا كله تظلُّ الحلة نفسها ، القرية، خليَّة متشابهة أساساً من البداية إلى النهاية ، خامة وشكلاً وتركيباً ، حتى بأبراج الحمام الشاهقة المضفرة شديدة التميز . (١)

الواقع إننا لا نعرف شعباً في العالم أجمع أشدَّ محافظة من الشعب المصري على تقاليده – فقد مرَّت على مصر أدوار مختلفة من التاريخ غيَّرت لغة البلاد وذكَّرت بالديانة المصريَّة القديمة ديانة التوحيد عدَّة مرات ، ولكن الغزوات التي توالت على مصر لم تستطع أن تغيِّر شيئاً مما ورثه الشعب المصري من التقاليد والمظاهر .

قد يكون من المحتمل أن آلاف اليونان والرومان والعرب والمماليك والعثمانيين والإنجليز الذين استقرُّوا في مصر قد تمكَّنوا من إحداث أثر ضئيل في المدن الكبيرة التي استقرُّوا فيها ، ولكن باقي البلاد التي تشمل آلاف القرى والكفور والنجوع بقيت محافظة على مصريتها وتقاليدها القديمة دون أن يعتورها نقص أو تأثير .

يقول د. محرم كمال : " الفلاح الحالي لا يزال يشبه أجداده الذين عاشوا منذ أربعة آلاف سنة تمام التشابه مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالي قد أصبح يتكلَّم اللغة العربيَّة ويدين بالإسلام أو بالمسيحيَّة ، أما ملامحه وطريقة معيشته وأدوات الزراعة التي يستخدمها والمنازل التي يسكنها والعادات التي يزاولها والتقاليد التي يسير عليها فهي مصريَّة فرعونيَّة في روحها وشكلها .

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ بتصرف .

فمازال الفلاح يعيش هو وماشيته في منازل مبنية من اللَّبِن (١) كما كان يعيش الفلاح في العصر الفرعوني ، وما زال يستعمل في فِلاَحة الأرض نفس المِحْراث والمِنْجَل والمِذْرَاة وغيرها من أدوات الزراعة التي كان يستعملها أجداده الأقدمون ، وما زال يروي أرضه بالشادوف الذي كان يروي به الفلاح القديم أرضه به ، فإذا جمع محصوله من الحبوب وضعه في صوامع من الطين يقيمها فوق منزله كما كان الفلاح المصري القديم تماماً ، ومازال هذا الفلاح الذي نراه اليوم خَيْر خَلَف لسلفه العظيم في صبره وجَلَدِه يعمل في حقله طول ليله ويكدُّ طول نهاره دون أن يدركه كلل أو ملل ، وهو في وسط فقره يستعين عليه بروح المرح والدعابة ، ومازالت السِّلال والمقاطف والزكائب والحبال بل والأنوال التي يستخدمها في نسجه وكذا المغازل هي نفسها أدوات سلفه العظيم .

هذا الفلاح الذي وصفناه هو الذي حافظ علي ما ورثه من تقاليد وعادات ظلَّ يتلقفها من أسلافه ، وينقلها وديعة إلى خلفائه جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن حتى وصلت إلينا في صور مختلفة من المعتقدات " (٢)

هذه الصورة للفلاح المصري وأدواته وقريته ظلَّت لنحو نصف قرن خلا كما يبدو ذلك في أفلام : زينب ، الأرض ، الحرام ، والبوسطجي ، الزوجة الثانية وغيرها ، لكن هذه الصورة قد تغيَّر كثير من ملامحها الآن مع ما شهدته القرى المصريَّة من مَدَنيَّة حديثة في أدوات الزراعة والحصاد ووسائل المواصلات وبناء البيوت وأثاثها ، وما بها من أدوات منزليَّة وأجهزة كهربائيَّة .

وفي كتاب د . محرم كمال " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية " طائفة كبيرة من العادات والعقائد المصريَّة القديمة الباقية في مصر الآن مثل : الإكثار من الأولاد والنسل ، التمسُّك بوظائف الحكومة ومداهنة الرؤساء ، كره الاغتراب والعزوف عن الهجرة ، الإسراف في الولائم والأفراح ، عادات الغناء الموسيقى والتصفيق بالأيدي ، السحر والعين والحسد والاعتقاد في الأيام السعيدة والمنحوسة، أدوات الفلاح ، النَّدب

(١) اللَّبِن : الطوب الذي يصنع من الطين والرمل والماء مع إضافة نسبة قليلة من التِّبْن ثم يجفف تحت أشعة الشمس .
(٢) د. محرم كمال " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية " الهيئة العامة للكتاب ص ١٠، ١١.

والتعديد ولطم الخدود وتلطيخ الرءوس بالطين ، تشييع الجنائز ، زيارة المقابر " الطلعة " ، الاعتقاد في أرواح الموتى ، نحر الذبائح عند باب المقبرة وحمل الزهور وسعف النخيل ، تمني الرحمة والنور للموتى في مقابرهم ، غسل ملابس الميت وصرف روحه ، الكلمات المستعملة في ألعاب الأطفال ، الأطعمة الوطنيَّة القديمة ، الكلمات المستعملة في الأغاني والأفراح والحفلات ، أسماء الأشخاص ، أسماء الشهور ، أسماء المدن ، كلمات لها أصل قديم ..

القرية متحف مصريٌّ قديم مفتوح حي

إن تمسُّك الفلاح المصري بدينه السماوي ، منذ فجر التاريخ وإلى اليوم ، وتحلِّيه بحسن الخلق وحفاظه على عاداته وتقاليده المعبِّرة عن توحيده لله وعمله الصالحات يعدُّ استمراراً حضاريّاً محموداً يجب الإبقاء عليه ، أما عدم تطوير أدوات إنتاجه ، وبناء مساكنه ، وتوفير الخدمات التي تكفل له الحد الأدنى من الحياة الكريمة فإن ذلك يعدُّ استمراراً للتخلُّف والرجعيَّة يجب أن يتوقَّف ويصحَّح .

لكن مع الأسف الشديد فإن علماء الحضارة المصريَّة ، والمفكَّرين يحتفون ببقاء واستمرار الجانبين معاً ؛ فيفاخرون بأن أدوات الفلاح المصري مازالت كما كانت على عهد المصريين القدماء : الفأس والمحراث ، والمنجل ، والشادون ... وشكل القرية : مساكنها ودروبها ومرافقها ... كما يفاخرون بتمسك الفلاح المصري بالعادات والتقاليد المصريَّة الأصيلة .

والحقيقة أنه يجب التفرقة بين الجانبين ففي حين أن حفاظ الفلاح المصري على شخصيَّته المصريَّة وعاداته الأصيلة يحمد له فإن إهمال حكَّامه على مر العصور تطوير حياته المدنيَّة وتوفير احتياجاته الأساسيَّة يعدُّ جريمة نكراء في حقِّ الفلاح المصري العظيم الذي حافظ على الجنس المصري نقيَّاً ، وعلى إنتاج الأرض الزراعيَّة المصريَّة ، وعلى الهويَّة المصريَّة كما سنبيَّن .

ولكن مع الأسف الشديد فإن هذا الفلاح العظيم الذي حافظ الجنس المصري والهويَّة المصريَّة أُهْمِل أشدَّ الإهمال وغُبِن أقسى الغَبْن فقد توقَّفت حياته المدنيَّة والعمرانيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة عند عصر الدولة المصريَّة القديمة ؛ فلم تطوَّر حياته إنسانيّاً

، ولم يتحسَّن وضعه اقتصاديّاً ، ولم يرق شأنه اجتماعيّاً ، والعجيب أن يفاخر علماء المصريات والمفكرون المصريون بوضع الفلاح هذا بدلاً من أن يرثوا لحاله ويطالبون المسئولين بتوفير حاجاته الإنسانيَّة والخدمات الضروريَّة فإن السمات الماديَّة العامة للريف المصري منذ نحو نصف قرن (١)تكاد تطابق تماماً سمات الريف المصري القديم من حيث تخطيط القرية وشكل المنازل وطريقة الحياة اليوميَّة، والأدوات المستعملة في البيت وفى الحقل، وأسلوب الزراعة ! كأنَّ القرية المصريَّة أصبحت مُتْحَفاً حيّاً مفتوحاً لحياة المصريين القدماء ، كالآثار المصريَّة المنحوتة والمصوَّرة التي أقامها المصريون القدماء !!

يقول جمال حمدان : " " ومنذ فقدت مصر استقلالها السياسي ، تعاقبت عليها عشرات القوى الأجنبيَّة الحاكمة التي تمثِّل بيئات وحضارات مختلفة ابتداءً من البطالسة إلى الرومان إلى العرب بجميع أسرهم حتى الأتراك . ومع ذلك فإن كلَّ هؤلاء الغزاة ، مستعمرين كانوا أم مُعَمِّرين ، تركوا نظام الحياة والإنتاج الأساسي في البلد دون أن يتدخَّلوا فيه على الإطلاق واقتصر دورهم على الإشراف والتوجيه العلوي أو بالأحرى على وظيفة جباية الخراج أو الجزية .

وبصفة خاصة فإنهم تركوا الري والزراعة وكل فنون الأرض والمساحة والتعمير في يد الفلاح يجري على نظامه النيلي الألفي دون أن يجرءوا على التدخُّل فيه أو أن ينجحوا في تطويره أو إدخال أي إضافة جذريَّة أو هامَّة عليه . ولو قد كان في استطاعتهم أن يفعلوا ، لفعلوا ، ولكن بقدر ما فرضوا أنفسهم على البلد من أعلى ، بقدر ما فرض البلد نفسه عليهم من أسفل ، فَتَقَوْلَبُوا به أكثر مما صبُّوه في قالبهم .

---

(١) إن كثيراً من الفلاحين المصريين الآن قد أثَّرت فيهم الظروف الاقتصاديَّة والحياة المدنيَّة ، ووسائل الإعلام وأجهزة التواصل الاجتماعي ؛ فاضطرتهم ظروفهم الاقتصاديَّة السيِّئة إلى هجر أرضهم – التي كانت عرضهم – والهجرة الخارجيَّة إلى بلاد الدينار والدولار أو الهجرة الداخليَّة إلى المدن الكبرى طلباً لسعة الرزق ، بل إن بعضهم أقدم على تجريف الأرض وبيع ترابها لمصانع الطوب ، وبنى الكثير من الذين امتلأت جيوبهم وحقائبهم بالدنانير والدولارات بيوتهم بالخرسانة المسلَّحة على الأرض الزراعيَّة ، وأقاموا عليها مشاريع تجاريَّة لتصنيع وبيع السلع الاستهلاكيَّة الوافدة على مجتمعاتنا !
أما التغيير الآخر فقد كان التغيير الثقافي الأجنبي الوافد والذي روَّجت له وسائل الإعلام المختلفة والتليفزيون ، لقد أثَّر كل هذا في تغيير نمط حياة الفلاح وتغير سلوكه ولغته وثقافته وتآكل الموروث الحضاري الإنتاجي الأخلاقي الأصيل لصالح التقليد النفعي الاستهلاكي اللا أخلاقي المستحدث .

الاستثناء الوحيد بالطبع هو الحضارة الأوربيَّة الحديثة ، غير أن هذا شيء مختلف تماماً .

الحقيقة الثانية أننا أنفسنا حتى اليوم مازلنا نتَّبع كثيراً من أسس وتقاليد وأدوات الزراعة والإنتاج المصريَّة القديمة . ابتداء من الفأس والمحراث إلى ترع الري والمساكن والملابس .. إلخ أي أن كثيراً من عناصر الحضارة الفرعونيَّة الماديَّة والإنتاجيَّة ما زالت معنا حتى قلب القرن العشرين . وبعيداً عن أي دفاع عن التخلُّف ، فهذه الاستمراريَّة إن دلَّت على شيء فإنما تدل على وظيفة وتبيؤ الإنجازة الفرعونيَّة العتيقة ، وهي الرد المقنع على ما يستغربه أو يستنكره البعض من أن الحضارة الفرعونيَّة بعد أن سجَّلت قمة شامخة وبداية رائعة أصيبت بسرعة بالجمود والتوقف وتصلُّب الشرايين لآلاف السنين . (١)

والمبرر الذي يسوقه د. حمدان للاستمرار أسس وتقاليد وأدوات الزراعة والإنتاج المصريَّة القديمة غير صحيح فقد كان بوسع حكام مصر على اختلاف جنسياتهم وأزمانهم تطوير أدوات الزراعة والإنتاج وطرق الري والعمران بعد العصر المصري القديم تطويراً كبيراً ، ولكنهم حرموا القرية المصريَّة والفلاح المصري العظيم من أيَّة تطورات في الوسائل والأدوات ، في حين أولوا المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندريَّة كلَّ اهتماماتهم الاقتصاديَّة والعمرانيَّة ، وإن لم يكن في وسع حكام العصور الوسطى تطوير أدوات الفلاح ووسائله فما عذر حكَّام مصر في العصر الحديث في ذلك ؟! وما عذر حكام مصر في كلِّ العصور في فغبن الفلاح اقتصاديّاً والاستيلاء على فائض قيمة إنتاجه الزراعي والحيواني كما سنوضح لاحقاً.

ونحن إذ نعتز بالحضارة المصريَّة الأم وبالقيم المصريَّة الأصيلة لا يجب أن ظلَّ أسرى للحضارة المصريَّة الماديَّة ؛ فيجب أن نتعلَّم كلَّ جديد ونأخذ في أسباب العلم والتكنولوجيا حتى نعيد مجدنا التليد .

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٩١

والفلاح المصري لم يظلم فحسب سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً إنما ظلم أيضاً تاريخيّاً إذ أن المؤرخين لم يهتمُّوا بذكر حياة الفلاحين وعاداته وتقاليده ولا يكادون يذكرون شيئاً عنهم في كتبهم إلا إذا ارتبط ذلك بحادثة أو موقف لأحد الحاكم معهم.

إن المؤرخين لم يهتمُّوا إلا بالمدن الكبرى كالقاهرة والإسكندريَّة وأهملوا تاريخ مدن وقرى الأقاليم وخاصة أقاليم الوجه القبلي ، وقد انعكس هذا القصور على كتب التاريخ المدرسي في العصر الحديث .

علاقة الفلاح المصري بأرضه

ومن العجيب أن يظلَّ الفلاح المصري محافظاً على أرضه وإنتاجيته الزراعيَّة والحيوانيَّة رغم استغلال كثير من الحكام المحليين أو الخارجيين له ؛ فقد أُشْرِب قلبُه حُبَ أرضه كما أُشرب حب زوجته وأولاده فتفانى في الحفاظ عليها .

لقد أصبحت علاقة الفلاح بأرضه تشبه علاقة العبد بسيده فكما أنه لا حقَّ للعبد على سيده إلا ما يجود به سيده عليه فكذلك لا حقَّ للفلاح على أرضه إلا ما تجود به أرضه عليه وإن كان قليلاً بعد نهب الحكَّام معظمه ، وإن أردَّت الدقَّة فإن علاقة الفلاح بأرضه أشبه ما تكون بعلاقة الأمِّ المصريَّة بأولادها فهي تضحِّي بكلِّ حياتها من أجلهم ولا تنتظر منهم المقابل ؛ لأنها تفعل ذلك بدافع الأمومة وهي غريزة طبيعيَّة تولد بها المرأة وهي أرقى وأصدق مشاعر الحب وربما هي المشاعر الوحيدة التي نجحت في كلِّ اختبارات الحياة وصمدت تحت أقصى الظروف والضغوط .

صورة من حياة المصري القديم

لقد كان المصري القديم يعيش حياة كريمة لا ضيق فيها ولا غبن .

يقول د. أحمد بدوي : " والحقيقة أن حياة المصريين القدماء لم يكن فيها كثير من الضيق والشح ، وإنما كانت حياة موفورة الرزق مليئة بالخير ؛ فوجبة الفرد البسيط كانت من الخبز ، وشرابه فيها الجعة تكاد تشبه الوجبة الألمانيَّة الشعبيَّة . وأمَّا الوجبة الكاملة الغنيَّة فكان الطعام فيها من لحم البقر والطير كما كان الشراب فيها نبيذاً ، وكان نصيب العامل الكادح من الرزق في اليوم ثلاثة أرغفة وإبريقين من الجعة ، وقد يزاد عدد الأرغفة فتكون أربعة أحياناً ، وفي صورة الحياة اليوميَّة – كما سجَّلها القوم

بالرسم والحكاية – ما يدل على أنهم عاشوا عيشة راضية ؛ فهم قد أكلوا كثيراً وشربوا كثيراً ،وكان زادهم من الطعام والشراب حُلْواً طيِّباً . وأيسر النظر في صور موائد القربان أو ما يصاحبها من قوائم الطعام والشراب ، وما فيها من ألوان الخبز والفطائر ولحم البقر والطير ومن أنواع الشراب من الجعة والأنبذة ليدل في وضوح على أن أسلافنا في هذا الوطن المصري قد أحبُّوا الحياة واستمتعوا فيها بالطيبات من الرزق ولم يطمعوا من وراء دنياهم في أخرى تختلف عن أختها في شيء إذ كانت الأخرى في تصوُّرهم استئنافاً دائماً لدنياهم .. على أن كلَّ هذا لم ينسِ المصريين واجباتهم نحو وطنهم ونحو أنفسهم ولم ينسهم كرامتهم الإنسانيَّة ولم ينسهم احترام القيم الخلقيَّة والروحيَّة وفي آدابهم ونصائح الحكماء منهم حَضٌّ على الاعتدال في استمراء لذَّات الحياة ولهوها ، ونهي عن الإسراف على أنفسهم في الحياة الدنيا ، وفيها تحذير من فقدان الوعي خشية عقدة اللسان ، أو فقدان توازن البدن الذي يؤدي حتماً إلى وقوع الضرر والأذى بأبدانهم فضلاً عن أهدار الكرامة."(١)

كانت هذه هي حياة عامَّة الشعب المصري ، قبل انهيار الحضارة المصريَّة ووقوع مصر تحت نير الغزاة والمحتلِّين الذين سخَّروا الشعب وخاصة الفلاحين لخدمتهم وحرموه من أبسط الحقوق الإنسانيَّة ، والعجيب أن الفلاح المصري رغم سطوة المحتلِّين وقسوة الحياة تمسَّك بأرضه وظلَّ يفلحها ويخرج ثمارها ولم يفكِّر في هجرها ، وإذا كانت الفلاَّحة المصريَّة حافظت على الجنس المصري فإن الفلاَّح المصري أبقى على أرضه ولم يهجرها في أحلك الظروف فظلَّ يحافظ عليها ويزرعها بنفسه ويعمل على زيادة إنتاجيتها وإن كان لا يعود عليه منها إلا ما يسد الرَّمَق .

أسباب تدهور حياة الفلاح المصري

ولا يتَّسع المجال هنا لتقصِّي عوامل تدهور الفلاح المصري تفصيلاً ، وكيف تحوَّل من إنسان حرٍّ يشعر بفرديَّته ويساهم بعبقريته في جميع مظاهر الحضارة من حوله إلى مجرد زارع للأرض يعيش على هامش الحياة يقتات الجهل والخرافات ويئن تحت سياط الظلم دون أن يثور أو يرفع صوتاً بالشكوى .

---

(١) د. أحمد بدوي هامش كتاب " هيرودوت يتحدث عن مصر " ص ١٦١ ، ١٦٣

ولكن يمكن أن نجمل هذه العوامل في نقطتين رئيسيتين :

١- ظهور الإقطاع كنظام اقتصادي غالب وانهيار نظام المِلْكيَّة الفرديَّة الذي عرفته الدولة القديمة ، وظل مركز الفلاح المصري يتدهور اقتصادياً وفكريّاً وقانونيّاً كلما رسخ الإقطاع واستقرَّت دعائمه حتى تحوَّل من إنسان حرٍّ مفكِّر خلاَّق إلى عامل سخرة وتابع أرض .

٢- فقدان مصر استقلالها السياسي وخضوعها منذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد لسلسلة لا تنتهي من الحكم الأجنبي فخضعت لاحتلال اللوبيين والأثيوبيين والآشوريين والفرس والإغريق والرومان والعرب والترك والعثمانيين وكان الفلاحون دائماً الذين يمثلون أغلبية الشعب وهم الذين يقع عليهم العبء الأكبر من الاضطهاد والاستنزاف المستمرين من جانب شتى ألوان الحكام والمحتلين وأدَّى ذلك بالتالي إلى زيادة تدهورهم ماديّاً ومعنويّاً.(١)

الحقب التي هجر الفلاح المصري أثناءها أرضه

والفلاح المصري أكثر الناس حبّاً لأرضه ، وصبراً في الشدائد ، ورضاً بالقليل ، وزهداً في متاع الدنيا ، وحفاظاً على العادات والتقاليد . كل هذا جعل الفلاح المصري مرتبطاً بأرضه ارتباط السمك بالماء لا يقدر على البعد عنها ولا يحيى بدونها ولم يحدث أن هجر المصري القديم أرضه إلا في حالات نادرة أشهرها :

١- إبان الاحتلال الروماني ، حيث هجر بعض المصريين أرضهم عقوبةً للرومان الطغاة الذين جعلوا أرض مصر سلَّة غلال لإمبراطوريتهم وأثقلوا كاهل الفلاحين بالضرائب ، وفوق ذلك حاولوا إرغامهم على تغيير اعتقاده المسيحي الأرثوذكسي إلى الكاثوليكي الملكاني مذهب الغزاة ؛ فهجر الفلاحون أرضهم وفرُّوا بدينهم إلى الصحراء وسكنوا الأديرة تخلصاً من الاضطهاد الديني أو الضيق الاقتصادي أو استجابة لوحي مقدَّس أو حباً في العزلة ، حيث تخلُّوا عن عرَض الدنيا ، واهبين أنفسهم للتعبِّد والتنُّسك ، منقطعين لخدمة الإله . (٢)

---

(١) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ١٠١، ١٠٢.
(2) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق . ص ١٩٨ – ١٩٩ .

٢- أيام محمد عليّ ، عندما احتكر الأرض الزراعيَّة ووزَّعها على الفلاحين لزراعتها لصالح الحكومة وتوريد محاصيلها بالسعر الذي تحدِّده وهو سعر بخس واحتكرت الحكومة تجارة هذه المحاصيل وبيعها في الأسواق العالميَّة بأغلى الأسعار ، وفائض القيمة يصب في خزينتها ؛ فينفقها محمد عليّ على حروبه التوسعيَّة من أجل إقامة إمبراطوريته ؛ كما أصدر محمد عليّ قراراً بتجنيد المصريين إجباريّاً واقتحم عساكره القرى واختطفوا الفلاحين وجنَّدوهم قسراً ؛ فهاجر كثير من الفلاحين إلى الشام فراراً من الفقر والقهر ، والعجيب أن محمد علي جرَّد حملة عسكريَّة لإجبارهم على العودة !!

٣- بعد ثورة ٢٣ يوليو ، عندما استولت الثورة على الأراضي الزراعيَّة المصريَّة من أسرة محمد على وكبار الملاك ووزَّعتها على الفلاحين وصنعت بهم ما صنعه محمد علي فقد أجبرت الثورة الفلاح على زراعة ما تريده من محاصيل وتوريده للدولة بالسعر الذي تحدِّده ، وهو سعر بخس ، كما احتكرت تجارته وبيعه في الأسواق العالميَّة بأغلى الأسعار وفائض القيمة ينفقه عبد الناصر على حروبه الخاسرة ، وزعامته الشخصيَّة ، والعجيب أن يتمَّ ذلك باسم الاشتراكيَّة التي ما قامت إلا بسبب استيلاء الرأسماليين على فائض القيمة دون العمال والفلاحين المستحقين لها (١) ونتيجة هذا الغبن هجر الفلاحون أرضهم وقراهم إلى القاهرة والمدن المصريَّة الكبرى بحثاً عن لقمة العيش بعدما عزَّت عليهم في قراهم ، وهذا ما يسمَّى الهجرة الداخليَّة .

باستثناء هذه الحالات النادرة فإن الفلاح المصري ظلَّ متمسكاً بأرضه حريصاً على زراعتها وإنتاجيتها .

يقول محمد العزب موسى : " إن ذلك التمرُّس الطويل القديم بالحضارة هو الذي مكَّن الفلاح المصري من الصمود لعوادي الزمن والاحتفاظ بكيانه وتراثه الفولكلوري وخصائصه النفسيَّة والجنسيَّة رغم كل عوامل التدهور التي تجرَّعها حتى الثمالة ، كان هذا الصمود من جانب الفلاح المصري في أسوأ الظروف هو سر بقاء مصر رغم ما

(٢) فائض القيمة يراد به " الفصل بين الأجر المستحق عن العمل المبذول وبين ما يحصل عليه العامل من الأجر أو هو الزيادة التي يبتزَّها صاحب العمل من العامل نتيجة إعطائه أجراً لا يساوي جهده المبذول فإن معدَّل ما يقدِّمه العامل من جهد هو أكبر مما يناله من الأجر"، أو المقصود بها الشيء الزائد عن قيمة السلعة الحقيقة التي هي حق للعامل بينما يأخذها الرأسمالي كجزء من القيمة وفائضها يذهب له لا للعامل ". موسوعة المذاهب الفكريَّة المعاصرة ، موقع الدرر السنيَّة .

أصابها من محن ، فقد بادت الحضارة القديمة ولم يعد لها وجود ، ولكن الشعب الذي تشبَّع بها اكتسب مناعة كافية ولم يتلاشَ بانهيار حضارته وضياع استقلاله وانتهاء تفرُّده بل ظلَّ يقاوم الزمن مُلْتصقاً بالأرض والنيل ومُلْتحماً بالمُناخ الطيب والسماء الصافية بينما تلاشت شعوب كثيرة أخرى عاصرت مصر القديمة . (١)

وعلى الرغم من أن الفلاَّحة المصريَّة هي التي حافظت على بقاء واستمرار الجنس المصري الأصيل ، وأن الفلاح المصري هو الذي حافظ على أرضه وأبقى على إنتاجها فإن الفلاح المصري : رجلاً وامرأة قد تعرَّض في عصور مصر المتأخرة لكثير من الغبن والتهميش والاستغلال .

الفلاح المصري ونظام الالتزام المملوكي/ العثماني

جاء في كتاب وصف مصر : " ثمَّة كثير من المزارعين الأحرار على ضفاف النيل قد أصبحوا مجرد فلاحين أُجراء ، أو عبيد مطحونين تحت وطْأَة تلك الضرائب الباهظة ، يفلحون هناك وفي حلوقهم غُصَّة ، أراضي خصبة ، لكنهم لا يستطيعون أن يجنوا لها ثماراً ، فهذا الوادي الخصيب في الفيوم ، وتلك السهول الخصبة في الدلتا التي كانت غزيرة الإنتاج تحت حكم الفراعنة والبطالمة ، لا تنتج الآن بالكاد ربع ما كانت تنتجه في الماضي ، ومن السهل أن نلتمس أسباب ذلك التغيير المحزن ، لكننا لا ينبغي أن نبحث عن تفسير عند الطبيعة أو عند تقلُّبات الطقس مهما كانت عنيفة ، فالنهر على الدوام هو نفس النهر ، وفيضانه السنوي شأنه شأن الماضي يأتي كل عام ليروي الوادي ، فقط اختفى الأمل ، فما عاد يلهب حماسة الفلاح ولا عاد يستثير همته ؛ إذ هو يعلم الآن أن ثمَّة أجنبيَّاً بغيضاً هو الذي سيحصل على ثمن عرقه هو ، نعم ، ماذا سيعود على الفلاح لو أنه عمل على إنماء محصولات جديدة ما دامت لن تعود عليه ولا على أولاده خيراتها ؟ إنه يبذر البذور وهو حانق ، ويجني محصوله وهو خائف ويعمل جهده ليخفي عن نظرات طغاته الجشعين قدْراً ضئيلاً من الحبوب يمكنه أن يحصل بها على بعض احتياجات أسرته العديدة ، فالفلاح في هذه البلاد البائسة ليس بمالك للأرض ، وليس بمقدوره أن يكون ذلك ، إنه ليس بصاحب للأرض ، ولكنه قِنٌّ (عبد) لها منذ ولادته ؛ يعمل لحساب تلك العصبة التي قهرت

(٢) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ١٠٣، ١٠٢.

وطنه واستذلَّته ، إنه رقيق الدولة في إسبارطة القديمة ، وعبد المستعمرات الأمريكيَّة التعس !

يبلغ عدد القرى في كل الوادي ما بين ٢.٥٠٠ – ٣.٠٠٠ قرية كبيرة أو صغيرة .. وهناك بعض الأفراد يتسَمَّوْن باسم المُلْتزمين ، وهؤلاء هم الذين يملكون أراض هذه القرى امتلاكاً فعليّاً ، ويعنى الفلاحون باقتسام هذه الأرض بينهم وبين الملتزمين ، ولكن انظر إلى أي حد تضاءلت حقوق الفلاحين ، وإلى أي حد وصلت سطوة الآخرين !

إن مالك عدد معين من القراريط يحصل من الفلاح الذي يفلحها ضريبة ثابتة كانت قيمتها في الماضي محدودة ، وبخلاف هذه الضريبة قام الملتزمون بتحميل الفلاح بعدد هائل من الضرائب والإتاوات لم تكن موجودة قط من قبل ، لكنها بمرور الأيام أصبحت ضرائب إجباريَّة واجبة الدفع ومسجَّلة ، وتُحَصَّل بقسوة بالغة ، وتُسمَّى حصيلة كلٍّ هذه الرسوم التي ينظر إليها السكان باعتبارها نتيجة لقهر وطنهم : البراني ، ويُحَصِّل الملتزم مجموع هذه الضرائب ، ومن هذه الحصيلة يدفع الميري وهو الضريبة الثابتة والمقررة بموجب قانون إداري قديم ، وهو يُحَصَّل باسم السلطان بواسطة الموظَّف الذي يمثِّله ، ويتحمَّل المصريون هذه الضريبة أكثر مما يتحمَّلون الضرائب الأخرى ، إذ هي في نظرهم اعتراف بسيادة السلطان ولأن لها طابعاً مشروعاً .

ويورِّث الفلاح لأبنائه حق زراعة الأرض التي في حوزته ، وعلى هؤلاء أولاً أن يدفعوا نوعاً من رسوم التَّقلُّد ، ومع ذلك فنادراً ما يسددها الفلاحون بالرغم من أنَّ للملتزم حق تحصيلها ، وتبلغ هذه الضريبة ثلاثة أمثال عائد الأرض المنزرعة ، ويمكن للملتزم حسب تساهله أن يتنازل عن جزء منها أو يتنازل عنها كليَّة إذا كانت الأرض ضعيفة ، ولكن إذا رفض الفلاح المُورَّث أن يسدِّد هذه الضريبة بالرغم من أوامر وتنبيهات المالك الملتزم فإن الأخير يستطيع أن يرغمه على ذلك بمنعه من استغلال الأرض التي كانت في حوزة أبيه ، فانظر إذن بأية طريقة وبأي ثمن يستطيع الفلاح المصري أن يورِّث أبناءه إرثه التعس .

ويمكن القول بأنه ليست للقانون المكتوب – على ضفاف النيل – إلا أهميَّة ثانويَّة ، بينما يرسم العُرْف أوامر وأحكام رجال القضاء كما أنه هو الذي يبرر تلك الابتزازات الإجراميَّة للرجال القادرين من كل الطبقات ، ونتيجة لهذه السوءة البربريَّة فإن الفلاحين يعيشون في شكل عبوديَّة أكبر مما ينبغي ؛ فأقدارهم تحت رحمة نزوات الملتزم الذي يستطيع حسبما يتراءى له أن يودي بهم إلى حالة من البؤس المفزع أو أن يهيئ لهم عيشاً رغداً ، إنَّ هذه الأوضاع الشيطانيَّة في مجموعها ليست أقل سوءاً من الأمور التي تستوجب نظاماً تشريعيَّاً جديداً في مصر.

وللملتزم الحق أن يبيع التزامه ، وعندما يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميري بدلاً منه ، ويرث أبناء الملتزم الالتزام عن والدهم ، لكنهم لا يخلفونه إلا بعد موافقة الباشا ، وفي هذه الحالة يحصل هذا الضابط باعتباره ممثلاً للسلطان على جَعْل يصل إلى ثلاثة أمثال قيمة الفايظ السنوي غير مشتمل على البراني ، ويؤكد الباشوات هذه الضريبة بأن يدفعوا إلى بلاد القسطنطينيَّة جزءاً من عائد عقودهم هذه ، ويعدِّل الباشوات في معظم الحالات من المبلغ المفروض كضريبة إرث ، ويمارسون في هذا الخصوص نحو الملتزمين ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين في نفس الظروف .

وفيما مضى كانت الأرض مملوكة لجَمْهَرَة من كبار الملاك ، لكن المماليك تخلَّصوا من هؤلاء حتى يقتسموا فيما بينهم أسلابهم ، وقد نتج عن هذا السلب أن أصبح أعضاء الحكومات المملوكيَّة يمتلكون كلَّ أرض مصر على وجه التقريب ، فكانوا يملكون على الأقل ثلثي الأراضي القابلة للزراعة .

وبرغم كل ذلك فسوف نقع في خطأ بيِّن إذا ما استنتجنا مما تقدَّم أنه ليست لدى المصريين فكرة صحيحة عن المكيَّة الحقَّة ، إنهم يعرفون معنى هذه الملكيَّة الحقة بلا ريب ، ولكن كيف يمكنهم أن يتمتَّعوا بها ، بينما كل شيء هناك يعترض سبيل سعادتهم ؟ فالعادات وطغيان الحكومات وجشع الملتزمين كل ذلك عقبات لا يمكن التغلُّب عليها ، لا مفرَّ من إصلاح تام بل يمكن القول بأنه لا بد من توزيع جديد للأرض ، ولو كان الفرنسيون قد استطاعوا أن يثبِّتوا أقدامهم في البلاد فليس من شكٍّ في أنهم كانوا سيصلحون من مساوئ هذا النظام ، وإذا ما حدث ووجد أبناء ريف مصر أنفسهم يعيشون في ظلِّ حماية القوانين فإنهم سيحصلون في وقت معاً على

الأمل والهمَّة ، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغلُّ هذه الأرض الخصبة المعطاءة التي استحقَّت ذات يوم اسم : مزرعة روما .

لكي نقدِّم فكرة تقريبيَّة عن بؤس الفلاحين فسوف نعتمد على شهادة المعلم يعقوب المباشر القبطي الذي أكد لنا أن ١٠ فدادين من الأرض في الصعيد تنتج خمسين أردبّاً من القمح من بذور خمسة أرادب ، كما أكَّد لنا بالمثل أنَّ الأقساط التي يدفعها الفلاحون للملتزم عيناً لا تقل مطلقاً عن ٣-٣.٥ أردب من الحبوب عن الفدان ، فإذا قمنا بخصم مصاريف الحرث والبذر نجد أنه لا يتبقى شيء على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين التعساء . (١)

الفلاح المصري ونظام الاحتكار العلوي

وعندما يأتي محمد علي لم يتغيَّر وضع الفلاح المصري كما ذكرنا بل ازداد وضعه سوءاً وذلك لأن محمد عليّ قرر أن تحتكر الحكومة جميع الحاصلات الزراعيَّة بحيث يحظر على الفلاحين أن يبيعوها إلى التجار ، وفرض عليهم أن يبيعوها للحكومة بأثمان تقررها هي ؛ فصارت الحكومة محتكرة لتجارات حاصلات القطر المصري بأكمله ، وهكذا تسلسل نظام الاحتكار ، فبعد أن تملَّكت الحكومة معظم الأراضي الزراعيَّة واحتكرتها بإلغاء نظام الالتزام واسترداد أملاك الملتزمين وإلغاء معظم الأوقاف ، احتكرت كذلك الحاصلات الزراعيَّة ، أي أن الحكومة صارت المالكة للأراضي الزراعيَّة ثم المحتكرة لحاصلاتها جميعاً ، فلم يكن للفلاح ملكيَّة على أرضه ولا على ما تنتجه !

وصار الفلاحون إذا احتاجوا للغلال للقوت يضطرون إلى شرائها من الحكومة ثانية وكثيراً ما يحدث أن ترفع الحكومة سعر البيع لتربح من ثمن البيع ، فتشتد الضائقة بالناس وترتفع أسعار الغلال في الوقت الذي تفيض بها مخازنها .

الفلاح المصري والإصلاحي الزراعي الناصري

(١) كتاب وصف مصر طبعة الهيئة المصرية العمة للكتاب ص ٢٠٢ – ٢٠٧ بتصرف .

وبعد قيام ثورة يوليو لم يفلح الإصلاح الزراعي في تحسين حياة الفلاح البائسة بل أضاف إلى فقره قهراً أشدَّ منه .

يقول أحمد طعيمة لعبد الناصر صديقه في الرسالة التي أرسلها له بعد النكسة بناء على طلب منه : " التعاون الزراعي بهيئاته وأنظمته وجمعياته هو مشكلة الريف الحقيقيَّة ، وأخطر ما في هذه المشكلة أنها قضت على كل ما قدَّمت الثورة من إصلاح اجتماعي كان يستهدف تحرير الأراضي وتحرير الفلاح من الإقطاع والإقطاعيين ليكونوا أسياداً للأرض ملاكاً لها.

فقد جاءت هذه الأنظمة فحوَّلتهم إلى عبيد لها بعد أن كانوا عبيداً للسادة أصحاب الأرض من الإقطاعيين السابقين فما شعر الفلاح إلا أنه قد استبْدَلَ سيداً بسيد وقد كان يمكن لبعضهم في عهد الإقطاع أن يرفع صوته ضد إقطاعي أو آخر ولكن كيف الخلاص من عبودية تفرضها الدولة بحكم القانون وبشعار إنها لخدمته ولصالحه.

لقد آن لنا أن نرفع الوصاية والسيادة عن كاهل الفلاح المصري وأن تكتفي الدولة بدور الإرشاد والمعاونة ولا تصبح الدولة هي " المزارع والتاجر الوحيد " .

سيدي الرئيس : قبل أن أختتم كلمتي عن الموقف الاقتصادي لابد وأن أثير موضوعاً خطيراً بعيد الأثر والمدى في تكوين الفرد والمجتمع وهو تحرير لقمة العيش.[1]

والحقيقة إن دافع ضباط الثورة لإصدار قوانين الإصلاح الزراعي ، كما صرحوا هم بذلك ، القضاء على طبقة كبار ملاك الأرض وعناصر الأرستقراطية الزراعيَّة التي سيطرت على مراكز السلطة في عصر ما قبل الثورة، وبالتالي تأمين مسار الثورة على الصعيد السياسي ، ولم يكن هدفهم إصلاح حال الفلاحين والمسمى الحقيقي لقوانين الإصلاح الزراعي هو الاحتكار الزراعي كما بيَّنا .

لم يطرأ على وضع الفلاح أيَّ تحسين بعد ثورة يوليو ؛ فقد ظلَّ محروماً من الماء النقي ، السكن الآمن ، الرعاية الصحيَّة ، الكهرباء ، التعليم الحقيقي ، الصرف الصحي ، سائل النقل والمواصلات ، حرية التعبير ، والثقافة العامة ، كما لم تتحسَّن

([1]) أحمد طعيمة " شهادة حق " حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ص ٢٧.

الناحية الاقتصاديَّة ، والاجتماعية وغيرها من مقومات الحياة السليمة إن حياة الفلاح بعد صدور قوانين الإصلاح الزراعي الذي لم تتغير كثيراً عما كان من قبل بل ساءت بعدما أضيف إليها قهر النظام الحاكم .

ومما يؤخذ على الإصلاح الزراعي تسليم بعض المزارع الكبرى إلى زمرة من الموظفين الإداريين لا خبرة لهم بالعمل الزراعي بل ولا بإدارة المشروعات فأساءوا الإدارة وأساءوا الاستغلال ، وكان أن تدهورت هذه المزارع الكبرى بدلاً من أن تتطوَّر إلى وضع أفضل ، وأوفر إنتاجية وأقدر على الوفاء باحتياجات الناس المتزايدة.

كما كان من سلبيات الإصلاح الزراعي أيضاً إصدار تشريع تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر فصدر قانون يعسِّر معه المالك على إخراج المزارع من أرضه طالما أنه يقوم بسداد الإيجار الذي حددته الثورة بسبعة أضعاف أمثال الضريبة المفروضة على الأرض ، وقد كانت ضريبة هزيلة مما أفضى إلى أن أصبح الفلاح المستأجر هو المستفيد الفعلي من الأرض فقلَّ اهتمام المُلاَّك برعاية أملاكهم بواسطة ما كانوا يملكونه من معدات عصريَّة مرتفعة السعر لقلَّة ما بات يدرُّه عليه ذلك من عائد. (١)

يقول د. حلمي مراد (٢) عن الإصلاح الزراعي : " أولاً لا يجوز نزع للملكية إلا بتعويض ، ولو بتعويض مقسَّط على فترة طويلة ، النقطة الثانية إنه يجب أن يعطى الفلاحين الإمكانيات التي تمكِّنهم من زراعة هذه الأرض دون تدخل من جانب السلطة ، عملية أنهم ينقلون من عاملين أو شغالين عند كبار الملاك إلى عاملين أو شغالين عند هيئة الإصلاح الزراعي أي موظفين في الدولة ويعانون نفس المتاعب ولا يحصلون على حقوقهم كاملة ، يبقى ما غيرناش في الواقع شيئاً وذلك إحنا بنجد ثمن محصول القطن اللي كان وقتها المحصول الرئيسي اللي بتستولى عليه الدولة من الفلاحين أقل بكثير من السعر اللي بتصدر به الدولة ، هذا الفارق كان من حق الفلاحين ، ولكنه أصبح ضريبة مستترة مفروضة عليهم ، إذن هنا الفلاح ما تغيرش وضعه ، ولذلك إحنا بنجد القرى لا زالت في الصورة الاجتماعيَّة والعمرانيَّة والمعيشيَّة

(1) د. ثروت عكاشة " مذكراتي في السياسة والثقافة " ج٢ الهيئة العامة للكتاب ص ٦٧٢ ، ٦٧٣.
(2) حلمي مراد أستاذ قانون ووزير في الحقبة الناصرية سابق .

القديمة ما حصلش تحسن في المجتمع الريفي ، ويمكن هذا أوضح في الصعيد من الوجه البحري . " (١)

لكن الدعايات الناصرية الزاعقة صوَّرت لنا الفلاح كأنه يعيش في جنة النعيم بفضل الإصلاح الزراعي الذي أصدره جمال عبد الناصر ، ولم يتغيَّر وضع الفلاح اقتصادياً كثيراً حتى الآن برغم تمتُّعه ببعض الخدمات الحكوميَّة : مدارس ، وحدات صحيَّة ، كهرباء ، ماء نقي ، أدوات زراعيَّة حديثة ..

صورة حيَّة من حياة الفلاح في آخر العهد الناصري

ولو استعدتُ حياة الفلاح كما عايشتها في أواخر الستينات ومطلع السبعينات في محافظة سوهاج في قريتي " نزلة داود " فسنقف على ما وصلت إليه حالة الفلاح المصري من وضع اقتصادي وعلمي وصحي ومع ذلك يجاهد جهاد الأبطال ثالوث : الفقر والجهل والمرض ويتمسَّك بالقيم المصريَّة الأصلية متذرعاً بفضيلتي : الإيمان القوي بالله ، والصبر الجميل .

كان فلاح قريتي ينام بُعَيْد صلاة العشاء ويستيقظ هو وأولاده وزوجته وطلوع الفجر حيث يبدأ صياح الديكة وهديل الحمام ، وبعد أن يتناولوا الإفطار من الحريرة، أو الدشيشة ، أو الرشدة أو العصيدة ، أو البسيس كلٌّ حسب قدرته الماليَّة، فالفقراء المعوزون يأكلون ، غالباً في الشتاء ، الحريرة وهي دقيق مخلوط بقليل من اللبن وإذا أضافوا إليه التمر صار عصيدة وإذا استبدل الدقيق بمجروش القمح أو الذرة الصيفيَّة صار دشيشة وبعد الطهي قد يضاف إليه السمن حسب الحالة الاقتصاديَّة ، أما إفطار الصيف فغالباً بعض قطع الجبن القريش أو الجبن القديم مغموساً في قليل من " المِش " مع أرغفة " البتاو " (٢)

ويخرج الأب وأولاده من دورهم مع بزوغ الشمس أو قبل ذلك بقليل سائرين على الأقدام أو راكبين الحمير إلى الحقول على أكتافهم الفئوس وفي أيديهم عُقُل (٣) الماشية

([1]) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو " مركز الأهرام للترجمة والنش ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .
(١) خبز يصنع من دقيق الذرة الصيفية مع قليل من الحِلْبة .
(٢) جمع عِقَال : حبل الماشية الذي تشد به .

، حيث يمضون وجه النهار في العمل والسعي والكد ، ولا يعودون إلا مع غروب الشمس وأحياناً بعده .

وفي الحقل يعزقون الأرض أو يبذرون البذور أو يسقون الزرع أو ينقونه من الحشائش الضارة أو من الدودة ، ويطعمون الماشية وبعد الظهر تأتي الزوجة أو أحد الأبناء الصغار يحمل الغداء مصروراً في منديل ، وغداء الفلاح عبارة عن جبن قريش أو لبن رائب أو جبن قديم وخبز بتاو إن كان فقيراً أو خبز القمح إن كان من الميسورين مع البصل أو الفجل أو بعض عيدان الحِلْبَة الخضراء يحضرها من حقله أو حقل جاره ، أما العَشاء فغالباً طبيخ يجني ثماره من حقله فعلى حافة الأحواض يزرع الفلاح البامية ، والباذنجان ، والفلفل والكوسة ، وفي أحواض خاصة يزرع الملوخيَّة ، والبطاطس ، والطماطم ، والفجل ، والبصل .. كما كان يزرع من الفواكه البرتقال واليوسفي والرومان والتين والجوافة والموز والتوت والنبق والجميز .. بالإضافة إلى النخل .

أما الفلاحة فتقوم بحلب المواشي قبل خروجها للمرعى واستبدال روثها الرطب بالتراب الجاف ، وتعمل من روث البهائم جِلَّة لتخبز بها ، وعند البناء يخلط روث البهائم بالطين والتبن وبعد أن يترك مدة ليأْسَن ويصبح طيناً لازباً يصنع منه الطوب اللبن الذي يبنى به البيوت أو يصنع منه الطبلية والمَكَبَّة والفرن والكانون والمسطبة والخَزَانة وصوامع الغلال ...

وإن كان الفلاح في العصور المتأخرة يحرق الطوب اللبن في " الكوشة " ليصبح طوباً أحمر أقوى وأصلب من الطوب اللبن ، كما أن الفلاَّحة بعد حلب اللبن ترقده في المِحْلاب (١) ثم تضخُّه في القِرْبة وهي جلد ماعز معلَّق على ثلاثة قوائم من الجريد ، ونتيجة خض اللبن يفصل الزبد عن اللبن ومن اللبن تصنع الجبن القريش والرايب ، وتستخدم الزبد في الطعام الذي هو إما طبيخ خضراوات أو فطائر ومخبوزات ومُعَجَّنات ، كما أنها تقوم بالخبيز والغسيل مرة أو مرتين كل أسبوع غالباً فالملابس لا تكاد تغسل حتى يستحيل لونها إلى لون الطين ، ولا يفلح الغسيل في تنظيفها تماماً

(٣) المِحْلاب : ماجور من الفخار .

إنما يخفف من قذارتها فقط فلم يكن هناك إلا صابون الغسيل الأسود الرديء فقط هو الذي تستخدمه الزوجة.

وفلاح قريتي أبعد ما يكون عن الأناقة إلا في المناسبات المهمَّة فقط فيخرج جلباباً جديداً وشالاً أو " تلفيحة تقيه برد الشتاء أو حر الصيف وربما حذاء يحتفظ بها للمناسبات فقط وهي قليلة كالأفراح ، التعازي ، السفر ، الأعياد ، أو استقبال زائر مهم . أما الأحذية فلا تكاد تُعْرف إلا في هذه المناسبات وسائر الأيام الحفاء هو الغالب على الكبار وهو السائد عند الأطفال والصبيان .

أما في غير هذه المناسبات فليس للفلاح إلا جلباب واحد يعمل فيه وينام فيه ولا تكاد تميز لونه من قذارته وسوء خامته .

أما التعليم فلم يكن معروفاً إلا في بعض الكتاتيب ولم يكن متاحاً لمعظم الناس لذا كانت نسبة الأمِّية مرتفعة جداً والنادر من حالفه الحظ وذهب إلى الكتَّاب ليحفظ القرآن أو أجزاء منه وليتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب .

ولم يُحْرم الفلاح من التعليم فقط إنما حُرم من كل وسائل الحياة الكريمة حرم من الماء النقي والرعاية الصحيَّة والكهرباء وسائر الحاجات الرئيسيَّة .

ولم تر بلدتي المدرسة النظاميَّة إلا في مطلع الستينات حيث تبرَّع عمدة البلد بدار صغيرة لتكون مدرسة وهي عبارة عن خمس غُرَف وفناء صغير . بدأ التدريس فيها بضع المدرسين هم أقرب إلى الأميين منهم إلى المتعلِّمين فضلاً عن كونهم معلِّمين تربويين يأتون بجلابيبهم راكبين حميرهم أو الأتوبيس القديم الذي لا يدخل بلدتنا إلا مرتين : في الثامنة صباحاً والرابعة عصراً ، وجميع من تعلَّم في هذه المدرسة من أقاربي خرجوا من الصف الخامس الابتدائي كما دخلوا لا يحسنون كتابة أسمائهم ، أمَّا الجيل الثاني من طلبة هذه المدرسة كانوا أحسن حظاً فقد بنت الدولة في أوائل السبعينات مدرسة إعدادية في قرية قريبة منا (قرية بني حرب) ومن أكمل التعليم ذهب إلى طهطا حيث توجد مدرسة رفاعة الطهطاوي الثانويَّة .

لقد تغيَّر هذا الوضع تماماً ولم تعد هذه الصورة موجودة للريف المصري إلا في أذهان العجائز وكبار السن فالفلاح اليوم يظل ساهراً حتى الساعات الأولى من الصباح أمام التليفزيون خاصة الشباب الذين بقوا في القرية ولم يهجروها إلى العاصمة والمدن الكبرى أو للبلاد العربية أو الأجنبيَّة كما أن الآلات الحديثة وفَّرت على الفلاح الجهد والوقت والمال فلم يعد يستيقظ إلا ضحى ولا يعمل بيده مستخدماً الفأس والمنجل والمحراث والساقية والنَّوْرج والمِذْراة بل أصبح يستخدم آلات الحرث والحصاد ، وتغيَّر مسكنه فصار كمساكن المدن وملابسه صارت حديثة ونظيفة .

ومن المؤكَّد أن رواسب الفلاح المصري الحضاريَّة وذكاءه الفكري واستعداده الطبيعي للتطور عوامل كفيلة بإثمار أي جهد صادق للنهوض بالريف والفلاح إلى مستوى الثورة التكنولوجيَّة الحاليَّة ، ولا شكَّ أن الريف المصري قد قطع أشواطاً هائلة إلى الأمام ، ولكن لابد من القضاء نهائيّاً على الآفات التقليديَّة الثلاث التي تهدم فلاحينا هدماً وهي : الفقر والجهل والمرض ، ولا بد من تغيير الأوضاع المادية في الريف بإحداث ثورة عميقة في أساليب الإنتاج وعلاقاته ، وتصنيع الريف وتخطيط القوى ولا بد من بذل جهد أكبر للنهوض بالفلاح ذاته ماديّاً ومعنويّاً.

وعندما ينهار الستار الحديدي بين الريف والمدينة سوف يسقط معه الفاصم الوهمي بين الحاضر والماضي ، وسوف يعود الفلاح المصري إلى المساهمة الإيجابيَّة في حضارة العصر الحديث كما كان يفعل أيام أمجاده التليدة . (١)

ماذا بقي من العادات المصريَّة التي ذكرها هيرودوت ؟

في الكتاب الثاني من كتب " هيرودوت " التسعة الذي خصَّ به مصر التي زارها عام ٤٤٠ ق.م واستمرَّت زيارته لها أربعة أشهر كانت كلها في أيام الفيضان نجد الكثير من العادات المصريَّة القديمة التي مازالت حيَّة حتى اليوم أو على الأقل حتى العصر الحديث .

(١) محمد العزب موسى " وحدة تاريخ مصر " ط ٢ المركز العربي للصحافة "أهلا" ص ١٠٥ .

يقول هيرودوت : " والآن سأبدأ الكلام عن مصر في إسهاب لأنها – دون غيرها من بلاد العالم أجمع – تحتوي عجائب أكثر ، وآثاراً تَجِلُّ عن الوصف ، ومن أجل ذلك سأطيل الحديث عنها ؛ نظراً لأن مُناخ مصر منقطع النظير ، ولأن نهر النيل له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة باقي الأنهار ؛ ولذلك اختلف المصريون كلَّ الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم . " (١)

وما قاله هيرودوت هو محلُّ إجماع العالم وهو أن مصر بلد ليس له مِثْل ولا تقارن بها دولة فهي ، بحق ، أم الدنيا ومعلِّمة سائر شعوبها العلم والحضارة ونهرها أعظم أنهار الدنيا ، أما عن مُناخها فمنقطع النظير كما قال هيرودوت .

ثم يتحدث هيرودوت عن حياة المصريين فيقول : " والمصريون يتغوَّطون (يقضون حاجتهم) في بيوتهم ويأكلون في الطرقات ؛ معتقدين أن الضرورات القبيحة يجب أن تؤتى في الخفاء ، أما غيرها فتؤتى جهرة " (٢)

يرى هيرودوت من الغرائب في حياة المصريين أنهم يقضون حاجتهم مستترين في بيوتهم ، ويجاهرون بالأكل على المصاطب أمام منازلهم أو في حقولهم وأماكن أعمالهم ، وهذا من صور الحياة السليمة ومن الكرامة الإنسانيَّة وما يدل على ذوق هذا الشعب وكرمه . نعم إنه الذوق كل الذوق ، بل إنها صور تدل على المروءة الكاملة . فهيرودوت حين يعجب من ذلك لأنه لم يره عند غير المصريين إنما يرمي شعبه الإغريقي – على الأقل – بفساد الذوق وانعدام المروءة . (٣) وإذا كان الغرب الآن يقضون حاجتهم في بيوتهم ويأكلون في الشوارع بالقرب من أعمالهم فالفضل يرجع إلى المصريين الذين علَّموهم ذلك .

---

(١) " هيردوت يتحدث عن مصر " ترجم الأحاديث عن الإغريقية د. محمد صقر خفاجة ، وقدَّم لها وتولى شرحها د. أحمد بدوي دار القلم ص ١١٦

(٢) نفسه ص ١١٨

(٣) د. أحمد بدوي تعليقاً على كلام هيرودوت هامش الكتاب ص ١١٨ .

يقول هيرودوت : " ويقضي العُرْف عند سائر الشعوب بأن يحلق أقارب المصاب رءوسهم أثناء الحداد ، ولكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت يطلقون شعر رأسهم واللحية . وقد كانت لديهم حتى يومئذ محلوقة " (١)

والمصريون يحلقون شعر جسمهم نظافة وطهارة كما قال هيرودوت في موضع آخر ويتركونها حزناً على موتاهم وهو ما يفعله كثير من المصريين حتى اليوم .

وعن علاقة المصريين بحيواناتهم يقول هيرودوت : " ويسكن سائر الناس في عزلة عن الحيوانات ، أما المصريون فيسكنون مع حيواناتهم ." (٢)

وإلى اليوم يجعل الفلاحون حظائر حيواناتهم داخل بيوتهم ، ولسنا نستغرب من المصريين أن يُعْنُوا بالحيوان أكثر مما يُعْنى به غيرهم من شعوب الأرض فمصر كانت ومازالت تعتمد في بناء حياتها على الزراعة ، ولن يعيب المصريين أن يعنوا بحيوان الزراعة ويرعوه على النحو الذي رآه هيرودوت واستغربه (٣) فالحيوانات أصدقاء حقيقيون للفلاح المصري يحسن تربيتها ورعايتها ويعتز بها لما لها من أثر كبير في حياته فمن ألبناها يشرب ومن منتجات ألبناها ولحمها يطعم ومن جلودها يصنع كثير من احتياجاته وعليها يركب ويحمل أثقاله .

والله تعالى يقول : { وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [النحل : ٥- ٧]

وعن طعام المصريين يقول هيرودوت : " ويعيش الآخرون من الناس على القمح والشعير ، ولكنه عارٌ عظيم على من يعيش عليهما من المصريين إذ هم يصنعون

(١) نفسه ص ١٢٠
(٢) نفسه ص ١٢١
(٣) د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢١

خُبْزهم من الذرة (١) وهم يعجنون العجين بأقدامهم ، فأما الطين فبالأيدي وبها أيضاً يرفعون الروث . " (٢)

وعن أهم الخضراوات التي يناولها المصريون مع الخبز يقول هيرودوت : " وقد بُيِّن على الهرم (الأكبر) بالحروف المصرية مقدار ما أُنفق ثمناً لما استهلكه العمال من الفجل والبصل والثوم " (٣)

وما زال المصريون عامة والعمال والفلاحين خاصة يكثرون من أكل البصل والثوم والفجل .

وعن تمسُّك المصريين بشريعة الله في ختان الذكور يقول هيرودوت : " وأعضاء التناسل يتركها عامة الناس ، على طبيعتها ، أما المصريون ومن أخذ عنهم فيمارسون الختان . ولكل رجل ثوبان وللمرأة ثوب واحد .. وكتابة الحروف والاتجاه في العدو يجري بها اليونان من اليسار إلى اليمين أما المصريون فمن اليمين إلى اليسار وهم إذ يفعلون ذلك يقولون إنهم يمينيون وإن اليونانيين يساريون. وهم يستخدمون نوعين من الكتابة ، إحداهما تسمَّى المقدسة (الهيروغليفية) والأخرى العامية (الديموطيقية). (٤)

ومازال المصريون إلى الآن مسلمين ومسيحيين يختنون أبناءهم صغاراً ، أما عن كون أن للرجل ثوبين وللمرأة ثوباً واحداً ، إن صحَّ ، فهذا لأن الرجل يعمل خارج

---

(١) نظن أن هيرودوت قد أخطأه التوفيق فيما فهم لأن المصريين قد عرفوا من الحبوب الشعير والقمح والذرة . فأما الشعير فقد كانوا يصنعون منه الجعة . وليس من شك في أنهم كانوا يأكلون من خبز القمح والذرة على السواء وإن كانت الذرة غذاء الطبقات الفقيرة من الفلاحين ومازال كذلك حتى يومنا هذا (١٩٦٦م) على أنَّ ذلك لا يمنع الفلاحين اليوم من أن يأكلوا من خبز القمح إذا وجدوه . د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢٢

(٢) لا نريد أن نكذِّب هيرودوت فيما ذكر من أن المصريين كانوا يعجنون العجين بأقدامهم ، وإن كنا لا نكاد نتصور ذلك إلا في المخابز العامة . أما فيما عداها فلدينا من آثار المصريين وتراث حضارتهم ما يصوِّر عكس ما رأى هيرودوت . فأما العمل في الطين فنظن أنه كان يجري طبقاً للظروف ؛ فبالأقدام إن كان كثيراً وبالأيدي إن كان قليلاً ، ومازلنا نرى ذلك في القرى حتى يومنا هذا فأما العمل في روث البهائم بالأيدي فما زال يجري في القرى حتى اليوم . د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢٢

(٣) " هيردوت يتحدث عن مصر " مرجع سابق ص ٢٥٣ .

(٤) نفسه ص ١٢٤ .

البيت ويحافظ على ستر بدنه لذا يستهلك ثياباً أكثر ، بخلاف المرأة التي أكثر عملها مصونة في البيت ، أما الكتابة من اليمين إلى الشمال ، وأن هناك لغة رسميَّة لغة العلم ، ولغة العامة لغة الخطاب فمازال كائناً إلى يوم الناس هذا مع تغير اللغة والكتابة إلى العربية .

يقول هيرودوت : " وهم (أي المصريون) يزيدون كثيراً عن سائر الناس في التقوى " .(١)

والتديُّن سمة راسخة في الشعب المصري أصيلة متجدِّدة لا يكاد ينافسهم فيها شعب آخر فهم أوَّل الموحِّدين وحاملو رسالات السماء لشعوب الأرض منذ أقدم العصور حتى اليوم ؛ فالأزهر الشريف قِبْلَة علماء المسلمين السُّنَّة في العالم وشيوخه أئمتهم ، وكذلك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس في العالم .

يقول هيرودوت : " والمصريون أيضاً هم أوَّل من راعى السُّنَّة التي تحرِّم مجامعة النساء في المعابد ، كما تحرِّم دخولها بعد الجماع دون اغتسال وسائر الشعوب تقريباً – فيما عدا المصريين واليونانيين – يجامعون النساء في المعابد ويدخلونها بعد الجماع دون اغتسال ، إذ يعتقدون أن شأن الإنسان في ذلك شأن سائر الحيوان . وأضافوا أنهم يرون جميع الحيوانات والطيور على كافة أشكالها تتعاشر في معابد الآلهة وحرمها . فإذا كان ذلك العمل لا يرضي الإله فلماذا إذن تفعله الحيوانات . هذا ما يروونه ليبرروا به أعملاً هي في نظري غير مُرْضِية "(٢)

وهذه الشعائر الدينيَّة لم يخترعها المصريون إنما تعلموها من الشرائع السماويَّة التي أنزلها الله تعالى على أنبيائهم وأخذها عنهم اليونان ، وهي التي جاء الإسلام بتمامها .

يقول تعالى : { وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ } [البقرة : ١٨٧]

{ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فاطهروا } [المائدة : ٦]

---

(١) نفسه ص ١٢٤ .
(٢) نفسه ص ١٦٦ .

يقول هيرودوت : " ويهتم المصريون كل الاهتمام بالقيام بسائر الشعائر المقدَّسة .. عندما يقدِّمون النذور إلى الإله الذي يُقدَّس يحلقون رءوس أبنائهم – الرأس كله أو نصفه أو ثلثه – ويقدِّرون الشعر بزنته فضة ويعطى هذا القدر من الفضة – مهما يكن وزنه – للحارسة التي ترعى الحيوان . " (١)

ومن ذلك ما يروى عن رسول الله ﷺ أنه تصدَّق بوزن شعر ابنه إبراهيم ذهباً ، وشبيه بذلك ما يفعله المصريون من أهل القرى حين يحلقون شعور أطفالهم عند ضريح السيد أحمد البدوي في طنطا وغيره .

وعن عادات المصريين يقول هيرودوت : " وهذه هي القوانين التي يتبعونها ؛ يشربون في أقداح برنزية (٢) ينظفونها كل يوم وكلهم دون استثناء يفعلون ذلك . ويلبسون ثياباً من الكتَّان ، ويهتمُّون جداً أن تكون دائماً حديثة الغسل ، وهم يمارسون الختان حبّاً في النظافة (٣) ؛ لأنهم يفضِّلون النظافة على حسن المظهر . وكل يومين يحلق الكهنة أجسامهم بأكملها حتى لا يتوالد بها القمل أو غيره من الحشرات أثناء قيامهم بخدمة الآلهة ، ويلبس الكهنة ثياباً من الكتَّان فقط وأحذية من البردي وغير ذلك من الملابس أو الأحذية محظور عليهم لبسها إلا قليلاً وهم يغتسلون كل نهار بالماء البارد ، ومرتين كل ليل"(٤)

وإلى الآن كثير من المصريين ، خاصة الفلاحين ، يشربون في أقداح البرنز أو الصفيح ويسمُّونها (الأكواز) ، ويلبسون القطن بدلاً من الكتَّان لأن القطن لم يعرفه المصريون إلا بعد الفتح العربي ، كما أن غالبية الشعب المصري إلى اليوم يفضِّلون النظافة على الأناقة فهم عمليُّون وليسوا مترفين ، ولم يمارس المصري القديم الختان حبّاً في النظافة فقط بل مارس الختان أولاً وقبل أي شيء لأنه شريعة دينيَّة سماويَّة أخذها عن أنبياء الله ورسله منذ فجر التاريخ ، كما أنَّ نجاسة الخنزير شريعة سماويَّة كذلك .

---

(١) نفسه ص ١٦٧، ١٦٨ .

(٢) إن المصريين حتى اليوم (١٩٦٦م) يشربون من أقداح البرنز أو الصفيح ويسمُّونها (الأكواز) . د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢٤، ١٢٥

(٣) عرف المصريون الختان منذ أقدم عصورهم التاريخية وإن آثارهم ، منذ أيام الدولة القديمة ، لتثبت ذلك إثباتاً يكاد يبرأ من كل شك وأما الحكمة من الختان عند المصريين فقد كانت حرصاً على النظافة والطهارة ورعاية صحة البدن وإلى ذلك يشير هيرودوت كما يشير إلى سبقهم في ممارسة الختان . د. أحمد البدوي هامش " هيرودوت يتحدث عن مصر " دار القلم ص ١٢٢ ، ١٢٣،

(٤) " هيردوت يتحدث عن مصر " مرجع سابق ص ١٢٤

يقول هيرودوت : " والمصريون يعتبرون الخنزير نجساً ؛ لذلك إذا مسَّ مصريٌّ خنزيراً أثناء مروره به ذهب في الحال وألقى بنفسه في النهر دون أن يخلع ملابسه، كما أن رعاة الخنازير – ولو أنهم مصريون بمولدهم – لا يدخلون دون سائر المصريين أي معبد من جميع معابد مصر ، ولا يرضى مخلوق أن يُزَوِّج أحد هؤلاء الرعاة من ابنته ، ولا أن يتزوَّج منهم ، ولكنهم يتزاوجون فيما بينهم (١)

والخنزير محرَّم في الشرائع السماوية يقول تعالى : { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة : ١٧٣]

وحرمة الخنزير شاملة للحمة وشحمه وجلده . وإنما خصَّ لحمه بالذكر ، لأنه الذي يقصد بالأكل ، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمه . (٢)

والخنزير محرَّم في التوراة ، وفي الإنجيل يقول عيسى ابن مريم للحواريين : " يا معشر الحواريين لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير لا يصنع باللؤلؤة شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير"

وبرغم أن المسيحية تبيح أكل الخنزير ولكن في ١ أغسطس ٢٠٠٧ نصح البابا شنودة بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسيَّة، أتباع كنيسته بعدم تناول لحم الخنزير، قائلاً : " إنه رغم عدم تحريم أكل هذا النوع من اللحم، فإن تناوله يتسبب في إصابة الإنسان بالعديد من الأمراض ، ولأنه من الحيوانات التي تتناول القاذورات والمخلفات غير النظيفة . "

والغالبيَّة العظمى من المسيحيين المصريين لا يأكلون لحم الخنزير كما أخبرني بذلك أصدقائي المسيحيين .

ويتحدَّث هيرودوت عن الاحتفالات المصريَّة فيقول : " ولقد سبق المصريون الشعوب إلى إقامة الأعياد العامَّة والمواكب العظيمة وعنهم تعلَّمها اليونانيون .. والمصريون لا يحتفلون مرة واحدة في السنة بعيد شعبي عام ؛ ولكن أعيادهم العامة

(١) نفسه ص ١٤٥
(٢) د. سيد طنطاوي" التفسير الوسيط " ج ١ ص ٢٧٦ .

كثيرة أهمها ذلك الذي يتحمَّسون جداً لإقامته في مدينة " بوباسطيس (تل بسطة عند الزقازيق) .. وفي طريقهم إلى " بوباسطيس " يسلكون هذا المسلك : يبحر الرجال والنساء معاً ويحمل كل قارب عدداً من الجنسين ويطبِّل بعض النسوة على الطبول التي بأيديهن ، وبعض الرجال يزمرون طوال الطريق أما باقي النساء والرجال فيغنون ويصفقون . " (١)

وصورة الاحتفالات المصريَّة القديمة تشبه تماماً احتفالات الفلاحين اليوم .

وعن علم المصريين وصحتهم يقول هيرودوت : " أما عن المصريين أنفسهم فأولئك الذين يعيشون في الأرضي المنزرعة (٢) يهتمون دون سائر الناس اهتماماً كبيراً بتمرين الذَّاكرة وهم ، في العلم ، يتفوَّقون كثيراً على كلِّ الشعوب التي خَبَرْتُها ، وهذه هي طريقة الحياة التي يتَّبعونها : مراعاة لصحتهم ، يتناولون في ثلاثة أيام متتالية من كلِّ شهر مُقيِّئات وحقن شرجية ؛ إذ يعتقدون أن جميع الأمراض تصيب الناس من الأطعمة التي تتغذَّى بها وهم – حتى بغير ذلك – أصحُّ الناس عامَّة بعد الليبيين ، وهذا يعزى – فيما أعتقد – إلى المناخ ؛ فهو غير متغير الفصول . (٣)

أما عن علم المصريين القدماء فهذا أضحى من المسلَّمات ، لكن اللافت للنظر هو ذلك الوعي الصحي لدى المصريين القدماء في الحفاظ على صحتهم بتناول المُقيِّئات والحقن الشرجية ، وهو ما تحرص عليه كثير من الأسر بصفة دوريَّة مع استبدال الشَّرْبة بالمُقيِّئات لتطهير المعدة وتنقيتها مما يفسدها ، وهذا بالطبع لا يغني عن وجود أطباء مهرة في شتى التخصصات .

يقول هيرودوت عن الأطباء المصريين : " وينقسم التطبيب عندهم إلى الفروع التالية : لكلِّ مرض طبيب متخصص فيه لا أكثر وبلادهم كلها غاصَّة بالأطباء ؛ بعضهم

---

(١) يقصد بذلك من يعيشون في الوادي ؛ حيث الأراضي التي تُزْرع على ماء النيل وما يتفرع منه من تُرَع وجداول تمييزاً لهم من البدو الرُّحل الذين يعيشون في الصحراء د. أحمد بدوي هامش كتاب " هيرودوت يتحدث عن مصر " ص ١٨٢ .

(٢) " هيرودوت يتحدث عن مصر " مرجع سابق ص ١٥٩– ١٦١ بتصرف .

(٣) نفسه ص ١٨٢.

متخصص في العيون وبعضهم في الرأس وبعضهم في الأسنان وبعضهم في الأمعاء وبعضهم في الأمراض الخفيَّة (يقصد الباطنة) . " (١)

ومن عادات المصريِّ القديمة التي مازالت موجودة إلى الآن اتخاذ " الناموسيَّة " لتجنُّب لسعة البعوض في الأماكن التي يوجد بها ، وصناعة المراكب من شجر السنط .

يقول هيرودوت : " الذين يعيشون في المستنقعات كلٌّ فرد منهم عنده شبكة يصيد بها السمك أثناء النهار ويستخدمها أثناء الليل كما يلي : يضرب الشبكة حول السرير الذي يستريح عليه ثم يتسلَّل داخلها وينام تحتها وإذا نام أحدهم ملفوفاً في رداء أو ملاءة من الكتَّان لسعه البعوض من خلالها بينما لا يحاول البعوض ذلك مطلقاً من خلا الشبكة . " (٢)

وعن صناعة السفن يقول : " ويصنع المصريون السفن التي تحمل البضائع من شجر السنط . " (٣)

وظلَّ المصريون طوال تاريخهم المديد يستخدمون شجر السنط في صناعة السفن لمتانته وشدته وكان من الحكم التي سمعتها صغيراً في بلدتي ثم اكتشفت أنها إحدى مربعات أحمد بن عروس هي :

خشب المراكب من السنط في البحر ياخد مهاجه (٤)

واجب على الحر يلزم الصمت أم الهلف (٥) ياخد مهاجه (٦)

ولا يكتفي هيرودوت بذكر نوع الخشب الذي يستخدمه المصريون في صناعة سفنهم بل شرح لنا كيفيَّة صناعة المصريين سفنهم وهي نفس الطريقة التي ما زال المصريون يصنعون بها سفنهم .

---

(١) نفسه ص ١٩٢ .
(٢) نفسه ص ٢٠٨ .
(٣) نفسه ص ٢٠٨ .
(٤) يتحمل هياج البحر وارتفاع أمواجه .
(٥) الخسيس عديم الأصل .
(٦) يهيج ويثور ولا يحكم كلامه .

يقول هيرودوت : " يقطعون من خشب السنط ألواحاً طول كل منها ذراعان تقريباً ويصُفُّونها كما يُصَفُّ اللَّبن (طوب البناء غير المحروق) ثمَّ يصنعون منه السفن على الوجه الآتي : يُعَشِّقُون الألواح التي طول الواحد منها ذراعان حول أوتاد طويلة متقاربة جداً ، وبعد أن يبنوا هيكل السفينة بهذه الكيفية يمدُّون عوارض على أعاليها . وهم لا يستخدمون الضلوع بل يسدُّون الفواصل التي بالداخل بالبردي ويصنعون دَفَّة واحدة تدفع من قاع السفينة . ويصنعون الساري من السنط والشراع من البردي . "(١)

وعن فيضان النيل يقول هيرودوت : " وعندما يفيض النهر على البلاد تظهر المدن وحدها فوق الماء ؛ وتكاد تشبه الجزائر في " بحر إيجة " على حين تصبح سائر أجزاء مصر بحراً فلا يبدو منها غير المدن ، وأثناء ذلك لا ينتقل المصريون بمراكبهم في مجرى النهر بل في وسط السهل " (٢)

وظلَّ حال القرى المصريَّة هكذا حتى بني السد العالي فحمى مصر من فيضان النيل واختفت هذه المظاهر تماماً .

هذا مما جاء في كتاب هيرودوت عن حياة المصريين وما ظلَّ باقيّاً حتى يومنا هذا أو إلى وقت قريب ، وضربنا صفحاً عن الأخطاء التي وقع فيها هيرودوت فليس يفوتنا أنَّ ما حصَّله " هيرودوت " من علوم المصريين ومعارفهم ؛ بل وعاداتهم أيضاً قد كان ضئيلاً ضحلاً ؛ ذلك لأن رواته لم يتعدُّوا طوائف الأدلاَّء من بني قومه ، والبسطاء من كهَّان مصر . يضاف إلى ذلك أن المصريين في زمان "هيرودوت " قد كانوا غارقين في المحنة السياسيَّة والاجتماعيَّة إلى آذانهم ، وكان من حقهم أن يضيقوا بالأجانب عامَّة ، والإغريق منهم بخاصة ؛ إذ كان من هؤلاء المرتزقون في جيش البلاد ، وأصحاب الأمر والنهي في بلاط الحاكم ، لقد كان حال المصريين يومئذ أشبه بحال المصريين أيام الخديو توفيق ؛ فالحاكم في بلادهم لم يكن مصريّاً وإنما كان ينحدر من سلالة ليبيَّة ، وبلاطه يموج بالغرباء ، والمقدمون من عسكره ، وأمراء جيشه كانوا من الغرباء . فلا عجب إذن أن يضيق المصريون بالغرباء ، وأن يكون أشدهم ضيقاً تلك الطبقة المستنيرة من أهل العلم والمعرفة ؛ وهم يومئذ من رجال الدين ، ولم يكن هؤلاء يملكون لأنفسهم ولا شعبهم من الأمر غير التذكير بالماضي ؛

(١) " هيردوت يتحدث عن مصر " مرجع سابق ص ٢٠٩ .
(٢) نفسه ص ٢١٠ .

يفاخرون به كل غريب ، ويوقظون به وعي الشباب ، ويلتمسون لأنفسهم فيما كانوا يفعلون بعض العزاء . (١)

ونختم كلامنا عن الاستمرار الحضاري بقول د. محرم كمال : " وهكذا تتوالى أمام أعيننا في مصر الحديثة صور مختلفة يُخيَّل إلينا معها أن رسوم جدران المقابر قد تحوَّلت في لحظات إلى رسوم حيَّة و" تابلوهات " مجسَّمة تنبض بالحياة .

فنحن كما رأينا نعيش في نطاق تركة خلَّفها لنا القدماء تشدنا إليها سلسلة من التقاليد والعادات ومختلف الأشياء التي تربطنا بها ربطاً وثيقاً لا تجد إلى فصم عروته سبيلاً فنحن كما كنَّا دائماً أبناء للفراعنة (الصحيح المصريون القدماء وليس الفراعنة) وأنا بهذه التركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب فخورين "(٢)

ويقول حسين مؤنس : " ولعل بلداً من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فإن مصر التي ولدت من نحو خمسة آلاف سنة لا زالت هي بعينها اليوم : لم يتغيَّر فيها الدين على طوال هذه الأحقاب إلا مرتين (٣) ولم تتغيَّر اللغة إلا مرتين أيضاً وليس في هذا تعبير عن تغيير جوهري في سمات الشخصيَّة المصريَّة ويحولها إلى شخصية عربيَّة فاللغة قد تضيف ثقافة أو معرفة لكن أبداً لا تغيير سمات الشخصيَّة على حين أن بريطانيا مثلاً لا يرجع تاريخها إلى أبعد من ألفي سنة تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، وأسبانيا يرجع تاريخه إلى ألفين وخمسمائة سنة تغير الدين خلالها ثماني مرات واللغة ست مرات . أما جنسنا فلم يتغيَّر في جملته خلال هذه الأعصر إلا تغيُّرات طفيفة ، في حين أن بلداً كإيطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيَّرت عنصر السكان تغييراً هاماً أكثر من مرة . ونتيجة ذلك أن طبيعة الحياة في مصر وجوهرها كما هي اليوم أيام الفراعنة " (٤)

الاستمراريَّة الحضاريَّة بين الثبات والتطور

(١) نفسه ص ٢٠٠ .
(٢) د. محرم كمال " آثار حضارة الفراعنة في حياتنا اليومية " الهيئة العامة للكتاب ص ٣٠ .
(٣) مصر لم تغير دينها فدينها الإسلام الذي هو دين كل الأنبياء { إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلام } [آل عمران : ٩] وأنها آمنت بكل الرسالات السماوية التي بُعث أنبياء الله ورسله بها لهداية شعبها ابتداء من إدريس حتى الرسالة المحمدية الخاتمة.
(٤) حسين مؤنس " مصر ورسالتها " ص ١٢٢، ١٢٣ .

يفسِّر بعض العلماء استمراريَّة الحضارة المصريَّة بشقيها : المدني والثقافي غالباً بشيئين :

١- ضخامة الإنجاز الحضاري المصري القديم الذي وصل إلى القمة قاطعاً الطريق أمام أي إضافة يمكن أن تضاف له في المستقبل .

٢- نمط الحياة المصريَّة المعتمد على الزراعة والاقتصاد الزراعي يورث الثبات وعدم التطوُّر والتحديث بخلاف نمط الحياة المعتمد على الصناعة فإنه يؤدي إلى التطور والتحديث .

يقول د. حمدان : " إن التفسير الأساسي للاستمراريَّة إنما يكمن في ضخامة الإنجازة الأولى بحيث قفزت في ضربة واحدة تقريباً قريباً من " سقف " البيئة ووصلت قرب أعلى آفاق إمكانياتها الحضاريَّة ، بحيث لم تكد تترك الكثير ليضاف أو يتغير فيما بعد .

هذا على طرف البداية والجانب الإيجابي ، أما على الاتجاه المقابل فإن "جوردون تشايلد" (عالم آثار أسترالي) مثلاً يجد كلَّ شيء تقريباً في خلْق الحضارة المصريَّة مركَّزاً بعنف في فترة التوحيد أو ما بعدها مباشرة ، وبعدها فكلُّ شيء تقريباً هو مجرد استمرار فقط ، حتى الفنون التشكيلية ؛ أليس الملاحظ أن قمَّة فن النحت ، وربما العمارة أيضاً ، هي عصر الأهرام والأسرة الرابعة ، وبعدها حدث تدهور نسبي بالتدريج ؟ على أيَّة حال فإن تشايلد نفسه يرى أن نفس أسباب الطفرة الأولى لم تلبث في الغالب أن أصبحت هي نفسها ، وبطريقة ديالكتيكية (جدليَّة) ، أسباب الثبات وعدم التغير اللاحق . (١)

هذا عن التفسير الأول لثبات الحضارة المصريَّة فماذا عن التفسير الثاني ؟

يقول د.حمدان : " لا ننسى أن الزراعة والاقتصاد الزراعي ، التي تطغى تماماً على حضارة مصر ، أدَّعى بطبيعتها إلى قدر من المحافظة التي ترتاح إلى المألوف وقد تتهيَّب المغامرة والتجديد أو تنفر منها ، فتورِّث الاستمراريَّة . وقد ربط البعض مثل "

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٨٩ .

توينبي " (من أشهر المؤرخين الغرب في القرن العشرين) ظاهرة المحافظة المصريَّة بنظام النيل والري الصناعي وما يستدعيه من نظام مقرر مُطَاع .

هذا بينما ذهب البعض الآخر كالعقَّاد إلى طبيعة الزراعة نفسها مباشرة ، فأشار إلى أن أقدم عهد مصر الزراعيَّة بالحضارة أصَّل فيها حبَّ الأسرة ومكَّن للنظام البيتي وتعوَّد استقرار النظام أو الرتابة التي تشبه أن تكون ركوداً من طول ألفتها وتغري النفس بالاستنامة إلى الوضع السائد ضماناً من مغامرة الاقتحام والتمرد بما فيه من وحشة التوحد وانفراد العصيان . (١)

والحقيقة ، كما بينا في فصل سابق ، أن الحضارة المصريَّة القديمة كانت أمَّ الحضارات الإنسانيَّ قاطبة لأنها بنيت على العلوم السماويَّة التي أتى بها رسل الله وأقاموا بها الحضارة المصريَّة القديمة ، وقد بدأت كاملة متطورة فتمسَّك المصريون بها وحافظوا عليها خاصة في جانبها الثقافي والديني والأخلاقي ، ولم يجد حكام مصر بعد ذلك : مصريين ، وأجانب نُظُماً أفضل منها فأبقوا عليها ، ولم يحاولوا تغيير الجانب الحضاري الثقافي لتمسُّك المصريين به ، وكذلك لم يحاولوا تغيير الجانب الحضاري المَدَني إما لعجزهم عن الإتيان بأفضل منه أو لعدم رغبتهم في ذلك فالذي كان يهمهم هو المكاسب الماديَّة التي يجنوها من مصر ، والحضارة الهلينستيَّة القديمة والإسلاميَّة الوسيطة هما الاستثناءان الوحيدان اللذان طورا من الحياة المدنيَّة كما حافظا على القيم الدينيَّة السماويَّة .

فلم تكن الاستمراريَّة الحضاريَّة بشقيها : المادي والمعنوي ، أو المَدَني والثقافي في حالة استاتيكيَّة جامدة – خاصة في عصري الحضارة الهلينستية القديمة والإسلاميَّة الوسيطة – إنما كانت استمراريَّة ميكانيكيَّة متطوِّرة في جميع مقوماتها : الطبيعيَّة والبشريَّة والمدنيَّة والثقافيَّة .

يقول جمال حمدان : " أما عن نوعيَّة الاستمراريَّة فهي لم تكن مطلقة ولا كفَّت عن التطور والنمو فحتى الأساس الأرضي نفسه عرف التغير وإن كان محدوداً : اختزال فروع الدلتا نفسه وتغيرها المستمر ، تقلُّص مستنقعات الشمال وانحسارها ثم نشأة

(٢) نفسه ص ٥٩٠ .

البراري ، التغيرات الصغيرة الدائمة في انحناءات النهر واختفاء الجزر وظهورها .. إلخ

والتكوين الجنسي وإن لم يعرف قط ما عرفته بعض بلاد أوربا وآسيا من تغيير جذري فقد تلقَّى كثيراً من المؤثرات الخارجيَّة الثانويَّة التي لا يمكن إلا أن تكون قد عدَّلته في كثير من التدرج وإن يكن في قليل من التغيير . وأكثر من الاثنين الجانب الحضاري ، فإن انصباب المؤثرات الخارجيَّة أدخل دائماً الكثير من الأفكار والخبرات والإضافات الجديدة جدد شباب مصر أكثر مما جددت دماءها ... رغم الاستمراريَّة العريضة كانت مصر دائماً تتغير ولكن ببطء وتدرج وفي متوالية متصاعدة كالآتي : اللاندسكيب (١) أقرب ما فيها إلى الثبات ، يليه التركيب الجنسي بجرعات ضئيلة ، يليه المُركَّب الحضاري بإضافات متباعدة ولكنها هامَّة .

حقيقة الأمر إذن وهو صفوة القول أيضاً إن الاستمراريَّة المصريَّة لا تعني التكرار بقدر ما تعني التراكم فالاستمراريَّة المصريَّة إن كانت تعني شيئاً فإنما تعني إن القديم فيها لا يعيد نفسه فحسب ولكنه يضيف إلى نفسه الجديد أيضاً . استمراريَّة إن قلَّ فيها أن ينسخ القديم تماماً ، فإنه لا يتناسخ ، وكفى ، وإنما هو أيضاً يتحوَّر ويتطوَّر داخليّاً وخارجيّاً ، وإن وقع هذا وذاك بهدوء وئيد وتدرج أشد تؤدة .

لم تكن استمراريتنا محصلِّة سبق حضاري مبكِّر مضروباً في عزلة طبيعيَّة محكمة بعد ذلك ، ولا كانت بعد هذا وذاك مجرَّد اجترار حوصلي ، وإنما عمليَّة هضم بنَّاء وبناء مستمر .

ولعل أبرز ما يتضح هذا يتضح في الزراعة على وجه الخصوص ، تلك التي تمثِّل أيضاً العمود الفقري للحضارة الماديَّة واللاماديَّة المصريَّة بطبيعة الحال ، فتاريخ الفن الزراعي المصري ينقسم إلى عدة مراحل جيوتكنيَّة ، واحدة منها بعينها تحتلُّ الجزء الأكبر من تاريخ مصر ، وتلك هي مرحلة الفن القديم ، ولكن هذه المرحلة إذا كانت قد خَضْرمت وأزمنت طويلاً وعاشت تاريخاً ألفيّاً مديداً ، فإنها لم تكن فراغاً بلا إضافات . فمصر كما نعلم أخذت منذ أيام اليونان بالطنبور والساقيَّة، ومنذ البطالسة

(١) لاندسكيب هو الجزء المرئي لمساحة من الأرض بما تحتويه من معالم طبيعيَّة من أشكال و هيئات أرضيَّة و كائنات حية من أنواع نباتيَّة و حيوانيَّة و بشر.

أدخلت الجاموس ، ومنذ الفرس الإبل والسمسم ، ومنذ العرب القطن والأرز .. إلخ (١)

نهاية الاستمراريَّة الحضاريَّة الماديَّة القديمة

ظلَّت مصر كما بيَّنا محافظة على نمط حياتها ووسائل معيشتها مع تغيرات طفيفة في الجانب المادي من الحضارة : المسكن والمأكل والملبس وأدوات الزراعة والصناعة وسائر الحرف والمهن حتى بداية عصر النهضة الذي بدأه محمد علي فبدأ التغيير في الجانب المادي بشكل كبير ، وإن كان هذا التغير لم يغيِّر جوهر الشخصيَّة المصريَّة ، ولم يؤثر كثيراً في سماتها الأصيلة .

يقول حمدان : " إن الحضارة الأوربيَّة الحديثة منذ نهضة مصر في القرن الماضي قد جاءت لتضع إلى الأبد نهاية للاستمراريَّة الماديَّة القديمة ، استمراريَّة الحضارة التاريخيَّة ، بحيث أصبحت الاستمراريَّة تَمُتُّ إلى الماضي فقط كما تنصب عليه وحده ، تاركة مكانها نهائيّاً لانقطاع أكثر حدَّة وجذريَّة وتاريخيَّة ، لقد انتهت الاستمراريَّة المصريَّة الألفيَّة ، ومعها انتهت الحضارة الفرعونيَّة العتيقة .

ولهذا فنحن ننتهي مع " تونبي " إلى أن الحضارة الفرعونيَّة قد ماتت في مجموعها بعد تلك الاستمراريَّة النادرة والناضرة ، المحوريَّة والمحيرة ، التي سادت حضارتنا الماديَّة ورانت على تاريخنا الحضاري آلاف السنين . على يد من ماتت : الموت الطبيعي التاريخي البطيء من الداخل أو بالضربة التاريخيَّة القاضيَّة على يد الحضارة الأوربيَّة الحديثة لا ندري بالضبط ، ولو أن الأرجح كلاهما معاً ، وهذا على أيَّة حال ، ما ينقلنا من الاستمراريَّة إلى الانقطاع .

غير أننا ننتقل هنا إلى الانقطاع فإنما نقصد الانقطاع الحضاري بالطبع ، أي انقطاع الحضارة الماديَّة وحدها فقط مع دخول الحضارة الغربيَّة الحديثة . ولكن هناك من قبل ومن باب أولى لا يقل خطراً وحسماً وهو الانقطاع الثقافي مع دخول الإسلام والعروبة منذ أكثر من ألف سنة قبل الانقطاع الحضاري . (٢)

---

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٨٤ – ٥٨٦ بتصرف
(٢) جمال حمدان " شخصية مصر " دار الهلال ج٤ ص ٥٩٢، ٥٩٣ .

وفي كلام د. حمدان نظر بالنسبة للانقطاع الثقافي المصري بالفتح العربي وانتشار الإسلام في مصر ؛ فالمصري القديم منذ فجر التاريخ كان موحِّداً ومتمسَّكاً بشرائع السماء فقد بعث فيه أنبياء كثيرون من لدن إدريس عليه السلام حتى الفتح الإسلامي ، كما بينا في فصل سابق ، كما أن مصر لم تأخذ بالتدين البدوي الصحراوي إنما طبعت الإسلام بطابعها المصري الحضاري ، وساهمت ، كما بينا، بجهد وافر في بناء الحضارة الإسلاميَّة .

أما النهضة الأوربيَّة فهذه بضاعتنا ردَّت إلينا فقد أقامت النهضة الأوربيَّة إنجازاتها على ما تعلَّمته من الحضارة الإسلاميَّة ، وفي الوقت الذي خضعت فيه مصر وكثير من البلاد العربيَّة الإسلاميَّة للاحتلال الأوربي في الأندلس ، والعثماني في البلاد العربيَّة نهضت أوروبا وطوَّرت كثيراً ما تعلَّمته من المسلمين .

والحقيقة أيضاً أنه ليس ثمَّة انقطاع حضاري حتى على المستوى المادي إنما حدث تغير كبير في بعض مظاهر الحضارة الماديَّة في الملبس والمأكل والمسكن وأدوات الزراعة والصناعة ، فمازال كثير من الفلاحين يتمسَّكون بمظاهر حياة أجدادهم القدماء في المأكل والملبس ويستعملون نفس أدواتهم ويستخدمون نفس آلاتهم ، كذلك كثير من الحرف اليدويَّة والمهن ظلَّت على ما كانت عليه .

وبقاء حياة الفلاح الماديَّة على ما كانت عليه مع التغير الحضاري الكبير ، المادي، الذي يشهده العالم والذي أخذت منه المدن المصرية الكبرى بحظ وافر ليس مدعاة للفخر إنما مدعاة للأسى ، كما قلنا ، والأسف فقد أهملت الحكومات المتعاقبة القرى والكفور والنجوع إهمالاً تاماً خاصة محافظات الوجه القبلي مما نتج عنه أن الفلاح المصري ، خاصة في محافظات الوجه القبلي ، الذي حافظ على أرضه وبقي محافظاً عليها وعلى إنتاجها ، وحافظت زوجته على بقاء واستمرار الجنس المصري ، هذا المصري الأصيل أضحى فريسة سائغة لثالوث الفقر والجهل والمرض ، ونحن إذ ندعو إلى التمسك بالقيم المصرية الأصيلة نرفض استمرار التمسُّك بأدوات وأساليب الزراعة القديمة ونمط الحياة التليد الذي تجاوزته النهضة المصريَّة الحديثة .

***